

الفصل الثامن

كَيْفَ تَعْلُو الْهِمَمُ ؟؟

ولا تتخذ بالسَّير رُفْقَةً قَاعِدٍ ودعهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلًا

□ كيف تعلو الهِمَمُ ؟؟ □

ولعلوّ الهمة ورُقِّيها أسبابٌ .. نذكر منها :

الأول : الإخلاص :

قال ابن القيم في «الفوائد» (ص ٢٦١) : لِقَاحُ الهِمَّةِ العالية: النِّيَّةُ الصحيحة ، فإذا اجتمعَا بلغ العبدُ غاية المراد .
ونسِيان رؤية المخلوقين بدوام النظر إلى الخالق يَحُثُّ على الأخذ بمعالي الأمور ، لأن الناقد بصيرٌ . والفقه كُلُّ الفقه هو الفقه في مذاهب الإخلاص وتصفية العمل من شوائبه .

الثاني : الصدق :

قال ابن القيم في «الفوائد» (ص ٢٤٤-٢٤٥) : « ليس للعبد شيء أنفع من صِدْقِهِ رَبَّهُ في جميع أموره مع صدق العزيمة ، فيصدق في عزمه وفي فعله ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [عند : ٢٢] ، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل ؛ فصدق العزيمة : جمعُها وجزمُها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم ، فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل ؛ وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه ، وألا يتخلّف عنه بشيء من ظاهره وباطنه ، فعزيمة الصدق تمنعه من ضعف الإرادة والهمة ، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور . ومن صدّق الله في جميع أموره ، صنّع الله له فوق ما يصنع لغيره ، وهذا الصدق معنى يلتزم من صحّة الإخلاص وصدق التوكّل ، فأصدق الناس مَنْ صحَّ إخلاصُه وتوكُّله . »

الثالث : البصيرة :

قال ابن القيم في «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١) : « العزيمة لِقَاحُ البصيرة ، فإذا

اجتمعنا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كل مكان . فتخلف الكمالات ؛ إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة . والصبر لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعوا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيت ، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيت ، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك » .

والبصيرة نور في القلب يُبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار ، وما أعد الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه ، فيفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها .

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل ، كأنه يشاهده رأي عين ، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل ، وتضرره بمخالفتهم .

والبصيرة على ثلاث درجات ، من استكملها فقد استكمل البصيرة ؛ بصيرة في الأسماء ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد : **فالبصيرة في الأسماء والصفات** : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ، بل تكون الشبهة المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبهة والشكوك في وجود الله ، فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر . وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها ، والعلم بفساد الشبهة المخالفة لحقائقها .

والمرتبة الثانية : البصيرة في الأمر والنهي : وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى ؛ فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع تنفيذه وامتناله والأخذ به ، ولا تقليد يُريجه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص .

والمرتبة الثالثة : البصيرة في الوعد والوعيد : ومن البصيرة أنك تستدل

بتوفيقه لك ، وجذبك نفسك ، وجعلك متمسكاً بحبله - على تقريره لك ،
تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر ، وبذل النصيحة في العبودية .
وهذا كله من تمام البصيرة . فمن لا بصيرة له فهو بمعزل عن هذا .

وبالصيرة تفجر ينابيع المعارف من القلب . وبالبصيرة يُميز العبد بين
الحق والباطل ، والصادق والكاذب . وفراصة الصادقين العارفين بالله وأمره
وبصيرتهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان ، تميز بين ما يحبه
الله وما يُبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال ، وتميز بين الخبيث والطيب ،
والمحق والمبطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف بها مقادير استعداد السالكين
إلى الله ، فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علماً وإرادة وعملاً .

فراصة الصادقين وبصيرتهم دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول
وتعرفها وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات
الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين . فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراصة ،
وأُنفعها للعبد في معاشه ومعاده ^(١) .

الرابع : العلم :

فَمَنْ استوى عنده العلم والجهل ، أو كان قانعاً بحاله وما هو عليه ؛
فكيف تكون له همة أصلاً فالعلم يرتقي بالهمة ، ويرفع طالبه عن حضيض
التقليد ، ويُصفي النية .

قال ابن حجر رحمه الله يصف حال الإمام جلال الدين البلقيني : « ما
رأيت أحداً ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه ، بحيث إنه إذا طرَق سمعه
شيء لم يكن يعرفه ؛ لا يقر ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه ، وهو على
هذا مكب على الاشتغال ، محب في العلم حق المحبة ^(٢) .

(١) مدارج السالكين ١٢٣/١ - ١٣١ .

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٠٩/٤ ، للحافظ السخاوي .

« والعلم يُورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال ، فيتقي فضول المباحات التي تشغله عن التعبد ، كفضول الأكل والنوم والكلام ، ويراعي التوازن والوسطية بين الحقوق والواجبات ؛ امتثالاً لقوله ﷺ : « أعط كل ذي حق حقه » ، ويصّره بحيل إبليس وتلبيسه عليه ، كي يحول بينه وبين ما هو أعظم ثواباً . قال أبو سليمان : يجيئك - أي إبليس - وأنت في شيء من الخير ، فيشير لك إلى شيء من الخير دونه ليربح عليك شعيرة » ^(١) .

قال ابن القيم : « إن السالك على حسب علمه بمراتب الأعمال ونفائس الكسب ؛ تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه » .

الخامس : اليقظة :

قال ابن القيم رحمه الله : هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين . والله ما أنفع هذه الروعة !! وما أعظم قدرها وخطرها !! وما أشدّ إغانتها على السلوك !! فمن أحسّ بها فقد أحسّ - والله - بالفلاح ، وإلا فهو في سكرات الغفلة ، فإذا تنبّه شمّر لله بهمته إلى السفر إلى منازل الأولى ، وأوطانه التي سُبّي منها :

فحني على جنات عدنٍ فإنها منازلُ الأولى وفيها الخيمُ
ولكنّا سبّي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّمُ؟ ^(٢)

قال شيخ الإسلام الهروي : « هي القومة لله المذكورة في قوله : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ » . وقال : « القومة لله هي اليقظة من سِنَةِ الغفلة والنهوض من ورطة الفترة ، وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه . وهي على ثلاثة أشياء :

لحظ القلب إلى النعمة : على اليأس من عدّها ، والوقوف على

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل ص ٣٤٤ .

(٢) مدارج السالكين ١/ ١٢٣ .

حَدَّثَهَا ، والتفرُّغ إلى معرفة المِنَّة بها ، والعلم بالتقصير في حقِّها » .
 « والثاني : مطالعة الجناية ، والوقوف على الخطر فيها ، والتشمير لتداركها ، والتخلُّص من رِقِّها ، وطلب النجاة بتمحيصها .
 والثالث^(١) : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصُّل من تضييعها والنظر إلى الظنِّ بها لتدارك فائتها ، وتعمير باقيها » .
 أخِي :

لا يكون المؤمن العامر القلب إِلَّا متحرِّكًا مُحرِّكًا ، أمَّا المتباطئ الذي يَعْدُ بالالتحاق بعدما تظهرُ بوارِد النجاح ، فإنما يَعْدُ وَعْد الضَّعَاف .
 صاحِ ما الحرُّ من يثورُ على الظلِّ مِـمَّ وَقَدْ ثَارَتْ لِحَقُّهَا الْأَقْوَامُ
 إنما الحرُّ من يسيِّرُ إلى الظلِّ مِـمَّ فيصميه والأنام نِيَامُ
 فلا تَوَجَّل الانضواءَ تحت لواءِ الحقِّ ، وإلَّا عضضتْ أَسِنَّةُ الندم .
 دعا رسول الله ﷺ « ذا الجوشن الضبابي » بعد « بدر » ، فقال له :
 « هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟ » قال : لا . قال : « فما يمنَعُك منه ؟ » قال : رأيتُ قومك كذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك ، فأَنْظِر : فإن ظهرت عليهم آمَنت بك واتبَعْتُكَ ، وإن ظهروا عليك لم أتبعك .. فكان ذو الجوشن يتوجَّع على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ^(٢) .
 إذا ما علا المرءُ رام العلا ويقنع بالدُّونِ مَنْ كان دوناً

السادس : خروجه عن المألوفات والعادات :

وتوطِّن النفس على مفارقتها ، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض ، وما على العبد أضرُّ من ملك العادات له . وما عارض الكفَّار الرسل إِلَّا بالعادات المستقرَّة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين ، فمن لم يوطِّن نفسه على مفارقتها

(١) يعني من مراتب البقظة .

(٢) المنطلق ص ١٩١ .

والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه ، فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدَّةٌ ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾^(١) .

السابع : التفكُّر :

قال ابن القيم : « إذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة ، وهو تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له » .

قال الهروي : « وهي ثلاثة أنواع : فكرة في عين التوحيد ، وفكرة في لطائف الصنعة ، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال » .

قال ابن القيم : « الفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة . فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفى . والتي تتعلق بالطلب والإرادة : هي الفكرة التى تميِّز بين النافع والضار . ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع فيسلكها ، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها .

فهذه ستة أقسام لا سابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء »^(٢) .
« عن سالم بن أبي الجعد قال : سألت أمّ الدرداء رضي الله عنهما : ما كان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ فقالت : التفكُّر .

قال الحسن : التفكُّر مرآة تُريك حسناتك وسيئاتك .

وقال أبو جعفر الأدمي : كان يُقال : الهمُّ بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرة تُورث العبرة ، والعبرة تورث الحزم ، والحزم يُورث العزم ، والعزم يُورث اليقين ، واليقين يُورث الغنى ، والغنى يُورث الشكر ، والشكر يُورث المزيد ،

(١) مدارج السالكين ١ / ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ١ / ١٤٦ .

والمزيد يورث الجنة .

وقال عبد الرحمن بن زيد : ما رأس هذا الدين وصلاحه إلا التفكر ؛
تتفكر فتتظر أنه أخذ منك قليلاً من العمل ، ورضي به لنفسه ، وهو الربُّ
تبارك وتعالى !! فأنت العبد .. ما كَلَّفَكَ من ثنتين ، ما كَلَّفَكَ قدر حَقِّه فلا
تطيقه ، وما كَلَّفَكَ ما لا تستطيع فقال : اعملْ على قدر حَقِّي .. فأعطاك
الثواب على قدر كرمه وتوسُّعه ، وقَبِلَ منك العمل على ضعف ابن آدم !!
وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعتُ أبا سليمان يقول: إنما يُعَانُونَ^(١) إذا
تفكروا .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي صفوان - عبد الله بن سعيد بن
عبد الملك بن مروان - : أيما أحبُّ إليك : يجوع الرجل فيجلس يتفكر ، أو
يأكل فيقوم فيصلي ؟ قال : يأكل ويقوم ويتفكر في صلاته أحبُّ إليَّ ، فحدثتُ
به أبا سليمان فقال : صدق ؛ الفكرة في الصلاة أفضل من الفكرة في غير
صلاة ؛ لأن الفكرة في الصلاة عملان ، وعملان أفضل من عمل .

قال وهب بن منبه : المؤمن مفكرٌ مُذكرٌ مُزِدِّجٌ، تفكرٌ فعَلَنَتِ السكينة،
فسكن فتواضع ؛ قنع فلم يهتَمْ، رفض الشهوات فصار حُرّاً ، ألقى الحسدَ
فصارت له المحبةُ ، زهد في كلِّ فإنِ فاستكمل العقل ، فقلبه متعلّقُ بهمّةٍ ، وهمةُ
موكَّلٍ بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه سرمدٌ ، فهو دهره
محزون ، وفرحه إذا نامتِ العيون ، يتلو كتاب الله تعالى يردّده على قلبه ، فمرةً
يَفْزَعُ قلبه ، ومرةً تهمل عيناه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار
بالخلوة مفكراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله . قال وهب : هذا يُنادي يومَ
القيامة في ذلك الجمع العظيم على رؤوس الخلائق : قم أيُّها الكريم ، فادخلِ
الجنةَ .

(١) أي يصلون إلى مرتبة الإحسان ، كأنهم يؤمنون بعد مشاهدتهم الله ومعاينته .

وقال الحسن : أوصيكم بتقوى الله وإدمان الفكر ، فإن الفكر أبو كل برٍّ وأمّه ، مفتح خلال الخير كله ، وبه يحضر تسديد الله عز وجل كل موقف .
وقال لسفيان بن عيينة : التفكر مفتاح الرحمة ، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب ؟!

قال الفضيل : كلام المؤمن حكم ، وصمته تفكر ، ونظره عبرة . إذا كنت كذلك لم تنزل في العبادات .. ثم قرأ : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقال خليفة العبدي - وكان متعبداً - : لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعبد إلا عن رؤية ؛ ما عبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء ، فملاً كل شيء وغطى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء ، فمحا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف ؛ فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم برّبهم عز وجل ، وحتى كأنما عبدوا الله تبارك وتعالى عن رؤية .

وقال كعب الأحمار : من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فليكثر التفكر ، يكنّ عالماً .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، وما فهم امرؤ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل ^(١) .

الثامن : الاجتهاد في حصر الذهن ، وتركيز الفكر في معالي الأمور :

قال الحسن البصري : « نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » .
« قال » ولیم مولتون مارستن « المتخصص في علم النفس : « والعقل

(١) انظر كتاب : العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني . تحقيق : رضا الله بن محمد المباركفوري ص ٢٢١ - ٣١٢ ، دار العاصمة . الرياض .

الإنساني يصبح أداة مُدهِشة الكفاءة إذا رُكِّز تركيزًا قويًّا حادًّا .
 ونُقل عن « وليم جيمس » - وهو أبو علم النفس الحديث - أنه قال :
 « إن الفرق بين العابرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه إلى صفة أو
 موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها همهمهم،
 وإلى درجة التركيز التي يسعون أن يبلغوها » .

ثم يقول « وليم مولتون » : وهذه القدرة تُكتسب بالمرانة ، والمرانة
 تتطلب الصبر ؛ فإن الانتقال من الشرود إلى حصرِ الذهن حصرًا بينًا محكمًا -
 هو ثمرة الجهد المُلح ، فإن استطعت أن تُردَّ عقلك مرةً بعد أخرى وخمسين
 مرة ومائة مرة إلى الموضوع الذي اعتزمت معالجته؛ فإنَّ الخواطر التي تتنازعك
 لا تلبث أن تخلي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار ، ثم تلقى نفسك
 آخر الأمر قادرًا على حصرِ ذهنك بإرادتك فيما تختار ^(١) .

ويحفل التاريخ الإسلامي بأمثلة عطرة :

فالتابعي الجليل قتادة بن دعامة أفناه شغلُه بالعلم عن نفسه ؛ فقد قال
 مرةً لغلّامه : يا غلام : ناولني نعلي . قال : نعلك في رجلك .
 والإمام مسلم : كان سبب موته حصرُ فكره في حديث ؛ قال الحافظ
 أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم : « وكان لموته سبب غريب ، نشأ من
 غمرة فكرية علمية ، فقرأتُ بنيسابور - حرسها الله ، وسائر ديار الإسلام
 وأهله - فيما انتخبته من « تاريخها » للحاكم النيسابوري على الشيخ الزكي أبي
 الفتح منصور بن عبد المنعم .

قال أحمد بن سلمة - رفيق مسلم في الرحلة - : عُقد لأبي الحسين
 مسلم بن الحجاج مجلس للمذاكرة ، فذكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ نقلًا عن « روح الصلاة في
 الإسلام » للشيخ عفيف طيارة ص ٣٢ .

منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلن أحد منكم هذا البيت .
فقليل له : أهديت لنا سلة فيها تمر . فقال : قدّموها إليّ ، فقدّموها إليه ، فكان
يطلب الحديث ويأخذ ثمرة ثمرة يمضغها ، فأصبح وقد فني التمر ، ووجد
الحديث . قال الحاكم : زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مريض ومات ^(١) .
ومن قبله شيخه البخاري :

يقظاته ومنامه شرع ^(٢) كل بكل فهو مشتبه

يتذكر الحديث في منامه ، فهل سمعت بشغف للعلم مثل هذا ؟!
قال محمد بن يوسف البخاري : كنت مع محمد بن إسماعيل البخاري
بمنزله ذات ليلة ، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يُعلّقها في ليلة
ثمان عشرة مرة ^(٣) .

وقال محمد بن أبي حاتم الورّاق : كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفر ،
يجمعنا بيت واحد ، إلّا في القيظ أحياناً ، فكنتُ أراه يقوم في ليلة واحدة خمس
عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري ناراً ويُسرج ،
ثم يُخرج أحاديث فيُعلّم عليها ^(٤) .

وما قصّه الإمام ابن سحنون مع سرّيته أمّ مدام - التي ذكرناها في علو
همته في طلب العلم - منا بيعيد ، فارجع إليها ففيها العجب العُجاب !!
والإمام أبو بكر الباغندي من شغله بالحديث وحصر فكره فيه ؛ قال
عنه عمر بن شاهين : « قام أبو بكر الباغندي ليصلي ، فكبر ، ثم قال : أخبرنا
محمد بن سليمان لوّين ، فسبّحنا به ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦٤/١٢ ، و « صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته

من الإسقاط والسقط » ص ٦٤ .

(٢) الشرع : جمع الشرع ، وهو المثل والشبه .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٢ ، والسير ٤٠٣/١٢ .

(٤) طبقات السبكي ٢٢٠/٢ ، وتهذيب الكمال ١١٧٠ .

لله رب العالمين»^(١).

والإمام المحدث أبو العباس الأصم ؛ قال عنه الحاكم : « حضرت أبا العباس يوماً في مسجده فخرج ليؤذن لصلاة العصر ، فوقف موضع المئذنة ، ثم قال بصوت عالٍ : أخبرنا الربيع بن سليمان ، أخبرنا الشافعي .. ثم أذن»^(٢).
ومن قبلهم شيخ بيت النبوة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما : قال أبو نوح الأنصاري : « وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا ابن رسول الله ، النار . فما رفع رأسه حتى طُفئت ، ف قيل له في ذلك ، فقال : ألهتني عنها النار الأخرى »^(٣).

التاسع : القصد وصدق الإرادة :

قال ابن القيم : « إذا انتبه العبد وأبصر ، أخذ في « القصد » وصدق الإرادة ، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله ، وعلم وتيقن أنه لا بد له منه ، فأخذ في أهبة السفر ، وتعبئة الزاد ليوم المعاد ، والتجرّد عن عوائق السفر ، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج » .

قال الهروي : « الدرجة الأولى : قصد بيعث على الارتياض ، ويخلص من التردّد ، ويدعو إلى مجانبة الأغراض » .

قال ابن القيم : « فذكر له ثلاث فوائد : أنه يبعث على السلوك بلا توقّف ولا تردّد ، ولا غير العبودية ، من رياء أو سمعة ، أو طلب محمّدة ، أو جاهٍ ومنزلة عند الخلق » .

قال الهروي : « الدرجة الثانية : قصد لا يلقى سبباً إلا قطعه ، ولا حائلاً إلا منعه ، ولا تحاملاً إلا سهّله » .

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٩٣ .

(٢) المصدر السابق ١٥ / ٤٥٨ .

(٣) السير ٤ / ٣٩١ - ٣٩٢ .

قال ابن القيم : « يعني أنه لا يلقي سبباً يُعَوِّق عن المقصود إلا قطعه ، ولا حائلاً دونه إلا منعه ، ولا تحاملاً إلا سهّله » .

قال الهروي : « الدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهديب العلم ، وقصد إجابة داعي الحكم » .

قال ابن القيم : « يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهدّب به ويصلح ، ويقصد إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلّما دعاه ؛ فإن للحكم في كلّ مسألة من مسائل العلم منادياً ينادي للإيمان بها علماً وعملاً ، فيقصد إجابة داعيها . ولكن مراده بداعي الحكم : الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم . فأجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال ؛ فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال والمعرفة والحمد ، فالأمر يدعو إلى الامتثال ، وما تضمنته من الحكم والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة » .

العاشر : العزم على الكمالات :

قال ابن القيم في « الفوائد » (ص ٢٦٠) : « العزم لإقاح البصيرة ، فإذا اجتمع نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كلّ مكان . فتخلّف الكمالات إمّا من عدم البصيرة ، وإمّا من عدم العزيمة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (١/ ١٢٣) : « العزم : هو العقد الجازم على المسير ومفارقة كلّ قاطع ومُعَوِّق ، ومرافقة كلّ معين وموصل . وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه ، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده » .

والعزم نوعان : أحدهما : عزم على الدخول في الطريق ، والثاني : عزم في حال السير معه . وهو أخصّ من هذا .

فلا تتوقّف متردّداً أو قلقاً ، ولا تضيّع نفسك بالشكوك التي لا تلد إلا الشكوك .

ومشّت العزّامات يُنفق عمره حيران لا ظفر ولا إخفاق

وقال آخر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا
وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صدقوا الله لكان
خيرًا لهم ﴾ .

أخي : ألفت عجز العادة ، فلو علت بك همتك ربى المعالي ؛ لاحت
لك أنوار العزائم .

إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة ، وردفه قمر العزيمة أشرقت الأرض
بنور ربها .

« رأى بعض الحكماء برذوناً^(١) يسقى عليه ، فقال : لو هملج هذا
لركب. إقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها. سدّ القواطع محنًّ يتبين بها
الصادق من الكاذب ، فإذا خضتها انقلبت أعوانا تُوصلك إلى المقصود »^(٢) .

قال ابن القيم : « إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته ؛ عرضت
له الخوادم والقواطع ، فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات ، والملاذ والمناكح
والملابس ، فإن وقف معها انقطع ، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في
طلبه ، ابتلي بوطء عقبه وتقيل يده ، والتوسعة له في المجلس ، والإشارة إليه
بالدعاء ورجاء بركته ... ونحو ذلك ، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان
حظه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ؛ ابتلي بالكرامات والكشوفات ، فإن وقف
معه انقطع بها عن الله وكانت حظه ، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ،
ولذة الجمعية ، وعزة الوحدة ، والفراغ من الدنيا ، فإن وقف مع ذلك انقطع
به عن المقصود . وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه وما يجبه منه ؛
بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت ، تعب

(١) ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الحُمُر .

(٢) الفوائد ص ٦٠ .

بها أو استراح ، تنعم بها أو تألم ، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليُّه وسيِّده ، واقف مع مراده ينفذه بحسب الإمكان ، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره - فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ، ولم يقطعه عن سيِّده شيء ألبتة . وبالله التوفيق ^(١) .

الحادي عشر : الغيرة :

والغيرة من تمام البصيرة ؛ « لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقِّه ومحبه وإجلاله تكون الغيرة عليه أن يُضَيَّع ، والغضب على من أضاعه ؛ فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه ، وذلك عين البصيرة ؛ فكما أن الشك القادح في كمال الامتثال مُعَمِّ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله إذا ضيِّعت ومحارمه إذا انتهكت ؛ مُعَمِّ لعين البصيرة ^(٢) . والغضب لمحارم الله إذا استُحلَّت - كما يغضب النَّمِر إذا حَرِبَ - ^(٣) من صفات علالة الهمم .

« وغيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن تفرقه على جمعيته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية ، وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب ^(٤) .

وعلى قدر هذه الغيرة يكون شرف النفس وعلو همتها .
ولم أرَ في عُيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

(١) الفوائد ص ٢٢٧ .

(٢) مدارج السالكين ١ / ١٢٧ .

(٣) حَرِبَ الثمر وغيره : إذا اشتدَّ غضبه .

(٤) مدارج السالكين ٣ / ٤٣ - ٤٤ .

وحين ينتكس الإنسان يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط ، حين تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، حين يرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه ، يرتكس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، ويتمخض للسُّفول ، وإذا ماتت فيه الغيرة على نفسه وعلى المحارم ؛ يصبح أسفل من البهائم .

ولا يقيم على ضيمٍ يُرادُ به إلا الأذلَّان عيرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الحبلِ مربوطٌ برمته وذا يُشجُّ فما يدري به أحدُ

الثاني عشر : الدعاء :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أبخل الناس من بخل بالسلام ، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء » ^(١) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء » ^(٢) .

فإذا أردتَ باباً أقرب إلى مولاك وأوسع ولا مزاحم فيه ؛ فادخل من باب الذلِّ والافتقار ؛ فإن لانكسار القلب تأثيراً عجبياً في المحبة وعلو الهمة لا يُعبر عنه ، هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخلك على الله ، وترميك على طريق المحبة ، فيفتح لك منها باب لا يُفتح لك من غير هذا الطريق ، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة . لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار ، وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث تشاهدها ضيعة وعجزاً وتفريطاً وذنباً

(١) صحيح : رواه أبو يعلى في مسنده ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٩ .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٣٩٢ .

وخطيئة - نوع آخر وفتح آخر ، وطريق إلى علو الهمة عجيب . ومن ذاق عرف .

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس ، وهم في وادٍ وهو في وادٍ ، وهي تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السُّعاة ، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب .

من لي بمثل سيرك المُدَلِّل تمشي رُويِّداً وتجي في الأوَّل والدعاء والذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للربِّ جلَّ جلاله ؛ غايةً شمر إليها السالكون ، وأمَّها القاصدون ، ولحظ إليها العاملون ، كيف لا والعبد يشهد في كل ذرَّة من ذرَّاته الباطنة والظاهرة ، ضرورة تامَّة ، وافتقاراً تاماً إلى ربِّه ووليِّه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهده وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تُدرَك بالحصول . فيحصل لقلبه كسرة خاصَّة لا يشبهها شيءٌ ، بحيث يرى نفسه كالإناء المربوض تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ولا به ، ولا منه ولا فيه منفعة ، ولا يُرغب في مثله ، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبرٍ جديد من صانعه وقيِّمه . فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منَّ ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحقُّ قليلاً منه ولا كثيراً ، فأئى خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وعلم أن رحمة ربِّه هي التي اقتضت ذكره به وسياقته إليه ، واستقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربِّه ، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ، وما أدنى النصر والرحمة والرزق وعلو الهمة منه !! وما أنفع هذا الذلَّ له وأجراه عليه !! وذرَّة من هذا ونفس منه أحبُّ إلى الله من طاعاتٍ أمثال الجبال ، من المدلِّين المعجَّبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم .

وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكَّنت منه هذه الكسرة ،

وملكته هذه الدَّلَّة؛ فهو ناكسُ الرأس بين يدي ربِّه، لا يرفع رأسه حياءً من الله. قيل لبعض العارفين : أيسجدُ القلب ؟ قال : نعم ، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء .

فهذا سجود القلب .. فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى ؛ سجدت معه جميع الجوارح ، وعَنَّا الوجهُ حينئذ للحَيِّ القيوم ، وخشعت الجوارح والأصوات كلها ، وذُلَّ العبد واستكان ، ووضع خَدَّه على عتبة العبودية ؛ ناظرًا بقلبه إلى ربِّه ووليِّه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم ، فلا يُرى إِلَّا متملِّقًا لربِّه خاضعًا له ، ذليلاً مستعطفًا له ، يقول : كيف أُغضبُ مَنْ حياتي في رضاه ؟! وكيف أعدل عَمَّن سعادتي وفلاحِي وفوزي في قربه ؟!

وما الظنُّ بِمَنْ هو أرحمُ بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها ، إذا فرَّ عبده إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريقًا ببابه ، يمرُّغ خَدَّه في ثَرِيٍّ أعتابه باكيًا بين يديه يقول : يا ربِّ ، يا ربِّ ، ارحمُ مَنْ لا راحِمَ له سواك ، ولا ناصِرَ له سواك ، ولا مأوى له سواك ولا مُغيثَ له سواك ، مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤمِّلُك ومُرجيك ، لا ملجأ له ولا منجأ له منك إِلَّا إليك ، أنت معاذُه وملاذه !!

يا مَنْ ألوذُ به فيما أوْمَلُهُ وَمَنْ أعوذُ به ممَّا أحاذرُهُ
لا يَجْبِرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره
مولاي وسيدي وربِّي وإلهي ، أنت أصلحت الصالحين وأعليت من همهم ، فاجعلنا من الصالحين .. اجعلنا لك كما تريد لا كما نريد ، سخِّ أنفسنا عن الدنيا وهمِّها ، واجعل أنفاسنا وحركاتنا وسكِّناتنا وقفاً عليك أنت وحدك .

يا عَيْنُ سَحْيِ أَبَدَا يا نَفْسُ مَوْتِي كَمَدَا
وَلَا تَحْبِي أَحَدًا إِلَّا الْجَلِيلَ الصَّمَدَا

الثالث عشر : التنافس والتنازع بين الشخص وهمة :

فعلى « مرید تطویر همته أن یُضیف أعباءً وأعمالاً یومیةً لنفسه ، لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق ؛ بحيث يحدث نوع من التحدي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمله من أعباء جديدة ، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام ، حتى لا یصاب الشخص بالإحباط والیأس .

ويجب علیه كذلك أن یحسن اختیار هذه الأعمال والأعباء الجديدة ، بحيث تكون مُبلِغة له إلى الكمال ؛ « فمن كانت همته حفظَ جميع ما كتب محمد ابن الحسن - الشيباني - فالظاهر أنه یحفظ أكثرها أو نصفها » ^(١) . فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب رغبته في حفظ كُتب معينة ؛ سیوصله إلى حفظ أكثرها . والله أعلم » ^(٢) .

الرابع عشر : الحرص على الوقت :

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءاً
فتصبحُ في نقصٍ وتُمتسي بمثله أما لك معقول تُحسُّ به رُزءاً
يُميتُك ما يحْييك في كلِّ ساعةٍ ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهُزءاً

عُلاةُ الهمم یحرصون على « الثانية » من أوقاتهم حرصَ الجُموع المنوع ..
وحتى المصائب لا تلهيهم عن استغلال وقتهم والحرص عليه .

« واليُتَمُّ والعمى ، والغربة والفقر ؛ قد تكون أسباباً للنبوغ والإنجاز والتفدُّم والعطاء .

قد يُنعمُ الله بالبلوى وإنْ عظُمتْ وَيَتيلي الله بعضَ القوم بالنعم
ألف ابن الأثير كتبه الرائعة ، كـ « جامع الأصول » و « النهاية في غريب

(١) تعليم المتعلم في طريق التعلم ، للإمام برهان الدين الزرنوجي . تحقيق صلاح الخيمي

ونذير حمدان - نشر : دار ابن كثير .

(٢) الهمة طريق إلى القمة ص ٥٦ .

الحديث « ؛ بسبب أنه مُقَعَد .
وَأَلَّفَ السرخسي كتابه الشهير « المبسوط » خمسة عشر مجلدًا ؛ لأنه
محبوس في الجُبِّ !!

وكتب ابن القيم « زاد المعاد » وهو مسافر !!
وشرح القرطبي « صحيح مسلم » وهو على ظهر سفينة ، وجُلُّ فتاوى
ابن تيمية كتبها وهو محبوس وأخبرني أحد الصالحين أنه سُجِنَ فحفظ
في سجنه القرآن كله وقرأ أربعين مجلدًا ^(١) .
لله درهم من أئمة !!

شمس الأئمة السرخسي في الجُبِّ :

« لقد أُمِّلَى شمس الأئمة كتابه « المبسوط » - نحو خمسة عشر مجلدًا -
وهو في السجن بـ « أوزجند » ، وكان محبوسًا في الجُبِّ بسبب كلمة نصَحَ
بها الخاقان ، وكان يملئ من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجُبِّ ، وأصحابه
من أعلى الجُبِّ ، وقال عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح
المعاني وأوجز العبارات ، أملاه المحبوس عن الجُمُع والجماعات .. !!
وقال في آخر شرح « الإقرار » : انتهى شرح « الإقرار » ، المشتغل من
المعاني على ما هو من الأسرار ؛ أملاه المحبوس في محبس الأسرار .
وللسرخسي كذلك كتاب في أصول الفقه ، وشرح « السير الكبير »
أملاه وهو في الجب !! ^(٢) .

الخامس عشر : اعتراف المرء بقصور همته :

« اعتراف الشخص بقصور همته وأنه لا بد له أن يطورها ويعلو بها ، أمرٌ

(١) « لا تحزن » لعائض القرني ص ١٠٠ ، توزيع مكتبة ابن تيمية .

(٢) كتان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد اللطيف

أُولَئِكَ نَفْسِي لَا مَنَاصَ مِنْهُ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَمِنْ ثَمَّ لَا بَدَأَ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْهَمَّةِ الْعَالِيَةِ ، فَهَذَانِ الْأَمْرَانِ - الْاعْتِرَافُ بِقُصُورِ الْهَمَّةِ ، وَاعْتِقَادُ إِمْكَانِيَّةِ تَطْوِيرِهَا - عَامِلَانِ مُهِمَّانِ لَا بَدَأَ مِنْهُمَا فِي مُحَاوَلَةِ تَطْوِيرِ الْهَمَّةِ ، وَبِدُونِهِمَا لَا يَكُونُ الشَّخْصُ قَدْ خَطَا خُطَوَاتٍ صَحِيحَةً ^(١) .

السادس عشر : مجاهدة النفس :

مَنْ لَمْ يَبَاشِرْ حَرَّ الْهَجِيرِ فِي طَلَبِ الْمَجْدِ لَمْ يَقِلَّ فِي ظِلِّ الشَّرَفِ .. خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِي كِبَدٍ وَنَصَبٍ .. وَهَنَاكَ مَنْ يَكْدَحُ فِي سَبِيلِ نَزْوَةٍ وَشَهْوَةٍ ، وَالْعَظِيمُ يَكْدَحُ فِي سَبِيلِ عَقِيدَةٍ وَدَعْوَةٍ ، وَلَيْسَ لِلْعَابِدِ مُسْتَرَا حَ إِلَّا تَحْتَ شَجَرَةِ «طُولِي» ، وَلَا لِلْمُحِبِّ قَرَارٌ إِلَّا يَوْمَ الْمَزِيدِ ، فَاشْتَغَلْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ يَكْفِكَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

هَانَ عَلَيْهِمْ طَوْلُ الطَّرِيقِ لَعَلَّهُمْ أَيْنَ الْمَقْصِدِ ، وَحَلَّتْ لَهُمْ مَرَارَاتُ الْبَلَى حُبًّا لِعَوَاقِبِ السَّلَامَةِ ، فَيَا بَشْرَاهُمْ يَوْمَ ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ ﴾ .

قَفْ بِالْدِيَارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ تَبْكِي الْأَحْبَةَ حَسْرَةً وَتَشْوُقًا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِهَا أَسْأَلُ مَخْبِرًا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مَشْفِقًا
فَأَجَابَنِي دَاعِي الْهَوَى فِي رَسْمِهَا فَارَقْتُ مَنْ تَهْوَى فَعَزَّ الْمُلْتَقَى

أَخِي ، أَوَّلُ الطَّرِيقِ بِذَلِّ الرُّوحِ ، هَذِهِ الْجَادَّةُ فَأَيْنَ السَّالِكُ ؟
بَدَمِ الْمُحِبِّ يُبَاغُ وَصْلُهُمْ فَمَنْ الَّذِي يَتَنَاقَشُ بِالْثَمَنِ
يَا طِفْلًا فِي حِجْرِ الْعَادَةِ ، مُحْصُورًا بِقِمَاطِ الْهَوَى ، مَا لَكَ وَمَزَاحِمَةُ الرِّجَالِ ؟!
تَمَسَّكَتَ بِالْدُنْيَا تَمَسَّكَتِ الْمَرْضِعُ بِالظُّنْزِرِ ، وَالْقَوْمُ مَا أَعَارَوْهَا الطَّرْفَ !! مَا لَكَ
وَالْحَبَّةُ ، وَأَنْتِ أَسِيرُ حَبَّةٍ ؟! كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ !! وَهَلْ تَدْرِي أَيْنَ هُمْ ؟!
يَا هَذَا ، مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَجَدَّ وَجَدَّ ، وَلَيْسَ مَنْ سَهَرَ كَمَنْ رَقَدَ ،
وَالْفَضَائِلُ تَحْتَاجُ إِلَى وَثْبَةِ أَسَدٍ .

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ
أخي ، لو قد طلعت شمس العزيمة في نهار اليقظة ، لأنبتَ عالم النشاط
في صحراء المجاهدة .

إِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السَّيْفِ مُكْرَمًا تَمُتْ وَتُقَاسِرِ الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فَتُبْ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثْبَةً مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَحْلِ فِي الْفَمِ
قال ابن القيم رحمه الله : « أَعْرِفْ مَنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ صَدَاعٍ وَحُمَّى ،
وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه ، فإذا غلب وضَّعه ، فدخل
عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك ، فقال : إِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ ؛ فَإِنَّكَ تُعِينُ عَلَى
نَفْسِكَ وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَوَاتٍ مَطْلُوبِكَ » ^(١) .

وقال الإمام عيسى بن موسى : « مكثتُ ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك
العامة في أكل هريسة السوق ، فلا أقدر على ذلك ، لأجل البكور إلى سماع
الحديث » ^(٢) .

جاهدْ بقلبك قبل جوارحك؛ فالاعتبار عندنا بالأعمال القلبية.. غلبت
حراراتُ الخوف قلب داود فصار كفه كبيرًا ، ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ ، وقويت
روحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه !!

لولا مدامعُ ساداتٍ ولوعتْهم لَبَانَ فِي النَّاسِ عِزُّ الْمَاءِ وَالنَّارِ
فَكُلُّ نَارٍ فَمِنْ أَنْفَاسِهِمْ قُدَحَتْ وَكُلُّ مَاءٍ فَمِنْ طَرْفِ لَهْمٍ جَارِي
جاهد يا أخي.. لتكن عبد الله وحده، فحقيقة الحرية في كمال العبودية..

أَتَمْنَى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالًا أَنْ تَرَى عَيْنَايَ طَلْعَةَ حُرٍّ
قل لقيود الأرض وزُخرفها : لا ، لا يا قيود الملك ؛ فالملك يدعوني
إلى جواره في فردوسه .. فجاهد نفسك يا أخي تصل إلى الشرف كل الشرف ،
كما قال يحيى بن معاذ : أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم

(١) روضة المحييين لابن القيم ص ٧٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٨ .

الأحرار والأبرار .

قال ابن أدهم : إن الحرَّ الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها .
وسئل الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا مقدار مَصَّ نواة ؟ فقال :
المكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم .

قال بشر بن الحارث : « لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين
الشهوات حائطاً من حديد » .

وقال أبو سليمان الداراني : أفضل الأعمال : خلافُ هوى النفس .
وقال السري السقطي : لن يكمل رجلٌ حتى يُؤثر دينه على شهوته ،
ولن يهلك حتى يُؤثر شهوته على دينه .

قيل للمرتعش : إن فلاناً يمشي على الماء ! فقال : إنَّ مَنْ مكَّنه الله
من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشي على الماء .

وقال حاتم الأصمُّ : الموتُ الأحمر : مخالفة النفس .

وقال السري : أقوى الفتوة : غَلَبَتِكَ نَفْسُكَ .

وقال أحمد بن خضرويه : أَمِتْ نَفْسَكَ تُحْيِهَا .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصري : مَنْ صبر على مخالفة نفسه
أوصله الله إلى مقام أُنْسِهِ .

وقال أبو بكر بن الضرير المقرئ : دافعتُ الشهوات حتى صارت شهوتي
المدافعة .

وقد كان أهل الحزم يعوّدون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحاً ،
ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقاً ؛ وليطلب الأرباح في المعاملة بترك
المباح .

السابع عشر : قِصَر الأمل ، وكثرة ذكر الموت :

وقصر الأمل يدفع إلى علو الهمة وحُسن العمل :

فهذه أمُّ الصَّهْبَاء معاذة العدويّة زوجة صِلة بن أشيم ؛ « كانت إذا جاء

النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه .. فما تنام حتى تُمسي ، وإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها .. فلا تنام حتى تصبح ^(١) .
وكانت حفصة بنت سيرين إذا قامت إلى مصلاًها من الليل لبستُ كَفَنَها .
وقال الربيع بن خُثيم : لو غفل قلبي عن ذكر الموت ساعة واحدة ؛ لفسد قلبي .

وكانت ماجدة القرشية تقول : طوى أُملي طلوع الشمس وغروبها ، فما مِن حركة تُسمع ولا مِن قدم تُوضع ؛ إلا ظننتُ أنَّ الموت في أثرها .
وتقول : بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال وطَّروا الآمال ؛ خَفَّتْ عليهم الأعمال ^(٢) .

عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال : « كنْ في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعُدَّ نفسك في أهل القبور » ^(٣) .
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نُطِينُ شيئاً ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ قلتُ : شيء نصلحه . قال : « الأمر أسرع من ذلك » ^(٤) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصرُ جماعة فقال : « عَلَامَ اجتمع عليه هؤلاء ؟ » . قيل : على قبر يحفرونه . قال : ففزع رسول الله ﷺ ، فبَدَرَ من بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر ، فجثا عليه . قال : فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى

(١) صفة الصفوة ٤ / ٢٢ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ٧٤ .

(٣) رواه البخاري .

(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٨٦ .

حتى بلّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا ، قال : « أيّ إخواني ، لمثل هذا اليوم فأعدّوا »^(١) .

إن كنت تفهم ما أقول وتعقل فارحل بنفسك قبل أن بك يرحل
وذّر التشاغل بالذنوب وخلّها حتى متى وإلى متى تتعلّل^(٢)

قال أبو العباس الدوري : أنشدنا يحيى بن معين هذا البيت :
نؤمل أن نبقي طويلاً وإنما نعدّ من الأيام طرفاً وأنفاسا
وقال ذو النون المصري : توسّدوا الموت إذا نتمّ ، واجعلوه نصب أعينكم
إذا قمتم ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولا بد لكم من الآخرة .
وعن أبيّ بن كعب قال : كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل ، قام فقال :
« يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء
الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه »^(٣) .

قال الليدي : وجدت بعد موت أبي إسحاق الجبنياني رحمه الله رقعة تحت
حصيرة مكتوبة بخطه : « رجل وقف له هاتِف ، فقال له : أحسن ، أحسن
عملك ، فقد دنا أجلك » . فقال لي ولده عبد الرحمن : « إنه كان إذا قصر في
العمل ، أخرج الرقعة ، فنظر فيها ورجع إلى جدّه »^(٤) .

ما زال يلهج بالرحيل وذكره حتّى أناخ ببابه الجمال
فأصابه مستيقظاً متشمّراً ذا أهية لم تُلْهِهِ الآمال
وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتملّل :

(١) حسن : رواه البخاري في التاريخ ، وابن ماجه وأحمد ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٥١ .

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص ٢٨٠ ، دار القلم .

(٣) حسن : رواه أحمد والترمذي ، والحاكم ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٢ ، وصحيح الجامع رقم ٧٨٦٣ .

(٤) ترتيب المدارك ٥١٦/٢ .

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والردى لك لازمٌ
وتعمل فيما سوف تكررُه غِبَّةٌ كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وقال عبد الرحمن بن عمرو : أدركت امرأة لا أقدم عليها رجلاً ولا امرأة ممن أدركت ؛ كانت إذا أصبحت قالت : يا نفس ، هذا اليوم ، ساعديني يومي هذا ؛ فلعلك لا ترين بياض يومٍ أبداً . وإذا أمتست قالت : يا نفس ، هذه الليلة ، ساعديني ليلتي هذه ؛ فلعلك لا ترين سواد ليلةٍ أبداً . فما زالت تخذع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها ، حتى ماتت على ذلك ^(١) .

كم من مستقبل يوماً ليس بمستكمله ، ومنتظر غداً وليس بمستدركه !!
وقال إبراهيم بن أدهم : إخواني ، عليكم بالمبادرة والجد والاجتهاد ، وسارعوا وسابقوا ؛ فإنَّ نعلًا فُقدت ، أخُتُّها سريعة اللِّحاق بها .

وقيل للربيع بن خثيم : كيف أصبحت يا أبا يزيد ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

وقال قبيصة بن عتبة : ما جلستُ مع سفيان الثوري مجلساً إلا ذكر فيه الموت ، وما رأيت أحداً كان أكثر ذكراً للموت منه .

وقال مطرف : أفسد الموت على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : « أماً بعد ، فَمَنْ كان آخر علته الموت ؛ قد مات » . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ؛ فكأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تنل . والسلام عليك » .

وقال الفضيل : كفى بالله مُحبًّا ، وبالقرآن مُؤنسًا ، وبالموت واعظًا ، وكفى بخشية الله علمًا والاعتزاز بالله جهلاً .

فحقيق على من كان الموت موعده والقبر مورده والحساب مشهده ؛ أن يقصُر أمله ، وتعلو همته ويحسن عمله ؛ فهَيِّءْ جهازك ، وقدم زادك ،

وكن وصي نفسك .

وكان إبراهيم بن أدهم يقول كثيرًا : دارنا أماننا ، وحياتنا بعد موتنا
إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار .

وكان إبراهيم يقول : مثُل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه
لقبض روحك ، فانظر كيف تكون ، ومثُل له القيامة وأهوالها وأفزعها ،
والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون .

وكان رحمه الله يقول : « إن للموت كأسًا لا يقوى على تجرّعها إلا
خائف وجِل طائع كان يتوقّعها » .

وكان الربيع بن أبي راشد يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيتُ
أن يفسد ، ولولا أن أخالف من كان قبلي لسكنتُ الجبّانة حتى أموت .

وقال شقيق البلخي : استعدّ إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة .
وقال حاتم الأصمّ : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل ؟
وما تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن
القبر .

وقال الفضيل بن عياض : قال ابن المبارك : استعد للموت ولما بعد
الموت .. فشقق علي بن الفضيل شهقة فلم يزل مغشيًا عليه عامّة الليل .

وقال أحمد بن أبي الحواري عن زوجته رابعة وأحوالها : سمعتُ رابعة
تقول : ما رأيتُ ثلجًا قطُّ إلا ذكرتُ تطاير الصحف ، وما رأيتُ جرادًا قطُّ
إلا ذكرتُ الحشر ، ولا سمعتُ أذانًا قطُّ إلا ذكرتُ منادي القيامة . قالت :
وقلتُ لنفسِي : كوني في الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاؤه .

رحمها الله، هذا قصر أملها!! لقد كان الموت منها على بال؛ فاجتهدت
في العبادة ، حتى قال عنها زوجها : ربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرّك
قلبي على رؤيتها ، ما لا يتحرّك مع مذاكرتي أصحابنا ؛ لما أرى عليها من
أثر العبادة .

وعن محمد بن أبي توبة : أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي : تقدّم . فقلتُ : إن صليتُ بكم هذه الصلاة ، لم أصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدّث نفسك أن تصلّي صلاة أخرى ؟! نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل له ^(١) .

نعم يا أستاذنا .. نعم يا أبا فيروز .. نعم يا ريحانة بغداد .. صلّ صلاة مودّع !!

قال داود الطائي : يا داود ، من خاف الوعيد قصرَ عليه البعيد ، ومن طال أمله قصر عمله ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب .

وقال محمد السمين : كونوا من الله على حذر ، ومن دنياكم على خطر ، ومن الموت على وجل ، ولقدوم الآخرة على عجل .

وكتب الأوزاعي إلى أخٍ له : أما بعد ؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يُسارُ بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والمقام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال أبو يوسف الغسولي : اعلم يا أخي أن اختلاف الليل والنهار وممرّهما يُسرعان في هدم بدنك وفناء عمرك وانقضاء أجلك ، فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئنّ ولا تأمن حتى تعلم أين مستقرُّك ومصيرك ، وساخطٌ عليك ربُّك بمعصيتك وغفلتك أو راضٍ عنك بفضله ورحمته .

وقال السري : اجعل قبرك خزانة ، احشُها من كل عمل يمكنك ، فإذا وردت على قبرك سرّك ما ترى فيها .

ولمّا عُتِبَ عطاء السليمي في الرفق بنفسه قال : أتاُمروني بالتقصير ، والموت في عنقي ، والقبر بيتي ، وجهنم أمامي ، ولا أدري ما يصنع بي ربي عز وجل ؟! ^(٢) .

(١) الزهد الكبير ص ٢٣٧ .

(٢) صفة الصفوة ٣ / ٢٤٥ .

فقل مع كل نفس : الآن تُطوى صحيفتي .. وقل مقالة يحيى بن معاذ الرازي مع كل نفس : أدم جهازك ، وهيئ زادك ، وتهيئ للعرض على ربك جلّت عظمتُهُ .

وقال الفضيل : إنما أمسِ مثل ، واليوم عمل ، وغداً أمل .

وقال : ما أطال رجل الأمل إلا أساء العمل .

وقال ابن عمر لمجاهد : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، وخذ من حياتك لموتك » .
فأكيسُ الناس : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً .

الثامن عشر : الزهد في الدنيا :

قال ذو النون المصري : لو وصلوا إلى الله ما رجعوا ، فازهد يا أخي ترى العجب !!

وقال الحسن : رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً ، فأكل كِسرةً ، ولبس خُلُقاً ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة ، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك .

قال الجنيد : الزهد : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب .

وقال الحسن : الزهد راحة للقلب والبدن .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : عظمي وأوجز . فكتب إليه :
إن رأس ما هو مصلحك ومُصلح به على يدك : الزهد في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكير ، والتفكير بالاعتبار ، فإذا أنت فكرت في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلاً أن تُكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاء ومنزل قُلعة^(١) .

قال بشر بن الحارث : مساكينُ أهل الدنيا هم - والله - موضع رحمة .

(١) منزل قلعة : المراد أن الدنيا دار رحيل وانقلاع .

عن سعد بن أبي وقاص قال : أتى النبي ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله ، أوصني وأوجز . فقال النبي ﷺ : « عليك بالإيَّاس ممَّا في أيدي الناس ، وإيَّاك والطمع ؛ فإنه فقر حاضر ، وإذا صليتَ فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، وإيَّاك ممَّا يُعتذر منه »^(١) .

والهمَّةُ الأيُّمةُ العلية تأنف أن تتعلَّق بخرابات البليِّ وأعطانٍ ضيِّقة آخرها الخراب والبوار .. كيف لا يأنف الإنسان من دنيا أعلى شيء فيها : صنْع دودة ، وبزقة ذبابة ، ومُبَال في مبال ، ما الدنيا إلَّا مأْكول أو ملبوس أو مشموم أو مركوب ؛ أما المأْكول فأفضله العسل وهو بزقة ذبابة ، وأما المشموم فأفضله المسك وهو دُمُّ فأرةٍ ، وأما الملبوس فأفضله الحرير وهو صنْع دودة ، وأما المركوب فالخيل وعليها يُقتل الرجال ، والنساء مُبال في مبال تتزين بأجملها يُراد به أقبحها ، فمن زهد في هذا ؛ رنا بطرفه وقلبه إلى نعيم الجنات وجوار الكبير المتعال .

التاسع عشر : معرفة قيمة النفس :

أخي ، أنت في الخليقة شيء آخر لا يُشبهك أحد ، فاقراء نفسك واعرف ماذا تقدم .

فليحرص العبدُ على أن يرفع قيمته ، ويُغلي ثمنه بعمله الصالح ، وبعلمه ونبوغه ، واطلاعه ومثابرته وبحثه ، وتثقيف عقله وصقل ذهنه ، وإشعال الطموح في رُوحه ، والنبل في نفسه ؛ لتكون قيمته غالية عالية .

يا هذا، عندك بضائع نفيسة؛ دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونظرات؛ فلا تبدلها فيما لا قدر له . أ يصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسفاً على ما يفنى ؟ أو تبدل مهجة لصورة عن قليل تمحى ؟ ويحك !!

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرک . وقال : صحيح الإسناد . وأقره الذهبي ، ووافقه العراقي .

دمعة منك تُطفئ غَضَبَ رَبِّكَ ، وقطرة من دمٍ في الشهادة تمحو زللك ،
ونفسُ أسِفٍ يَنسِفُ ما سلف ، وخطوات في مرضاتهم تغسل الخطيئات ،
وتسيحة تغرس لك أشجار الخُلد في الجنات ، ونظرةٌ بعيرةٍ تُثمرُ الزهدَ في
الفاني .

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفتَ قيمةَ نفسك ، إنما خلقت
الأكوانَ كلها لك ، يا من غُذي بلبان البرِّ وقلْبُ بأيدي الألفاف ، يا زرعاً
تهمي عليه سحائب الإنعام ؛ كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت
المعنى ، وصدفٌ وأنت الدُّرُّ ، ومخيضٌ وأنت الرُّبْدُ . منشور اختيارنا لك
واضح الخط ، ولكنَّ استخراجك ضعيف ، لو عرفتَ قدرَ نفسك عند مولاك ؛
ما أهنتها ، إنما أبعد إبليس إذ لم يسجد لأبيك وأنت في صُلبه .

يا مختار الكون ، وما يعرف قدرَ نفسه ؛ أما أسجد الملائكة بالأمس
لك ، وجعلهم اليوم في خدمتك ؟!

كم من ملك في السماوات ما ذاقوا غمضاً؛ ليست لهم مرتبةٌ ﴿تُجافى﴾
جُنُوبهم عن المضاجع ﴿!!﴾

كم من ملك في السماوات ما ذاقوا طعاماً ولا شربوا شرباً؛ ليس لهم مدحةٌ
« وَلَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ » . الملائكة تصلي
عليك ما استقيمت ، وحملة العرش يستغفرون لك ، وسبق دعاء النبيين لك
وأنت في بطن أمك ، هذا قدرُك فأقبل تر العجب !!

يا هذا، كنت تدعي حُبهم ، وتؤثر القرب منهم ، فما هذا الصبر الذي
قد عَنَ عنهم ؟! كنت تستطيب رِيحَ الأسحار وما تُغيِّرُ المُحِبَّ ؟! كنت في
الرغيل الأول ، فما الذي ردَّكَ إلى السَّاقَةِ ؟! قف الآن على جادة التأسف ،
والزم البكاء على التخلف ، فأحقُّ الناس بالأسى من حُصَّ بالتعويق دون الرُفقاء .
فتش عن نفسك ، واعرف قدرك ، تَسْمُ بهمتك إلى العظيم .

أسألكم عنها فهل من مُخبرٍ فما لي بدعِدٍ من نأت دارهم عِلْمُ

ولو كنتُ أعلمُ أينَ حَيَمَ أهلُها وأَيَّ بلادِ اللهِ مذ ظعنوا أمُّوا
إذن لسلكنَا مَسْلَكَ الرِّيحِ خَلْفَهَا ولو أَصْبَحْتُ دَعَدْتُ مَنْ دُونَهَا النَّجْمُ
العشرون : الابتعاد عن كلِّ ما شأته الهُبوبُ بالهَمَّةُ :

من أسباب دناءة الهمة التي ذكرناها في الفصل السابق .

الحادي والعشرون : مراجعة جَدُول الأعمال اليوميِّ، والعزلة قليلاً، ومراعاة الأولويات الأهمُّ فالهمم :

وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة ، إذ كلما كان ذلك الجدول بعيداً عن الرتابة والمَلَلِ ؛ كان أجدى في معالجة الهمة .
ومثال ذلك : شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كلَّ يومٍ ، ويقضي الساعات الطَّوال معهم بغير فائدة تُذكر ؛ فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيّما فائدة ؛ بحيث يقلُّ من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة .

والعزلة قليلاً تجمعُ على الإنسان أمره وهمته :

قال عمر بن الخطاب : « تُخذوا بحظِّكم من العزلة » .

وقال الجنيد : « مكابدة العزلة أيسر من الخلطة » .

وكان ابن المبارك يُكثر الجلوس في بيته ، فقليل له : ألا تستوحش ؟

فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟!

الثاني والعشرون : كمال العقل :

« قال الحسن : ما يتمُّ دين الرجل حتى يتمَّ عقله .

وقال وهب : إن الرجلين يستويان في أعمال البر ، ويكون بينهما كما

بين المشرق والمغرب أو أبعد ؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر ، وما عبَدَ الله بشيء أفضل من العقل .

وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بطن وملاك ما علن ، وسائس

الجسد وزينة كل أحد ، ولا تصلح الحياة إلا به ولا تدور إلا عليه .
وسئل ابن المبارك : ما خير ما أعطي الرجل ؟ قال : غريزة عقل .
قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسن . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخ صالح
يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل : فإن لم يكن ؟
قال : موت عاجل »^(١) .

قال ابن الجوزي عن العقل : « قاوم الهوى فردّ غرّبه ، وشدّ أسر الحزم ،
وقوّى أزر العزم ، واستجلب ما يزين ، ونفّى ما يشين ، فإذا ثرك وسلطانك ،
أسر فضول الهوى فحصرها في حبس المنع ، وكفى بهذه الأوصاف فضيلة .
ولا ينبغي أن يُدال الهوى عليه ؛ فإنه عدوّه ؛ فيحطّه عن رُبّته ويستنزله
عن درجته ، ولا يجوز أن يُجعل - وهو الحاكم عليه - محكوماً ، ولا أن يصير -
وهو الزّمام - مزموماً ، ولا أن يعود - وهو المتبوع - تابعاً . فمن صبر على
مضيض مشاورته ؛ اجتنى حلاوة المنى في عواقبه »^(٢) .

« قال أبو جعفر القرشي :

نسبُ ابنِ آدم فعلُهُ فانظر لنفسك في النَّسَبِ
زَيْنُ ابنِ آدم عقلُهُ والعقلُ زينتهُ الأدبُ
وقال الله تعالى : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ قال مجاهد : الأبصار :
العقل .

وقال عروة بن الزبير : أفضل ما أُعطي العباد في الدنيا : العقل ، وأفضل
ما أُعطوا في الآخرة : رضوان الله عز وجل »^(٣) .

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ، بتصرف ص ٩ - ١٠ .

(٢) ذم الهوى ص ١٠ - ١١ .

(٣) كتاب العقل وفضله ، لابن أبي الدنيا ، تحقيق : لطفي الصغير ، ص ٤٢ - دار
الراية .

وعن وهب بن منبه قال : مكتوب في حكمة آل داود عليه السلام : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يُناجي فيها ربّه ، وساعة يُحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدق عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمل ، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : كما تتفاضل الشجر بالأثمار ، كذلك تتفاضل الناس بالعقل .

نعم يا ابن منبه رحمك الله ؛ فلكل شيء غاية وحدّ ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة الطيبة . وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقلك عقلك عمّا لا ينبغي فأنت عاقل . وقال وكيع بن الجراح: العاقل من عقل عن الله - عز وجل - أمره، وليس من عقل تدبير دنياه .

وقال سفيان بن عيينة: لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره .

وقال رحمه الله : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتّبعه ، ويعرف الشرّ فيجتنبه .

والقلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما في الوعاء ينفذ إذا لم يمدّه المعادن .

وقال ابن جريج : قوام الرجل عقله ، ولا دين لمن لا عقل له .

وقال بشر بن الحارث : النظر إلى الأحق سُخنة^(١) عين .

رحمك الله يا بشر، إذن فالنظر إلى العاقل قرّة عين !!

أما حديث العاقل والحديث عنه :

(١) سُخنة العين : نقيض قرّتها .

فقد قال المغيرة بن شعبه : الحديث عن عاقل أحب إلي من الشهد بما رصفه بمخض الأرفى^(١). فقال زياد: كذلك فلَهُو أعجب إلى العاقل من رثية فنين بسلاله ثغب ، في يوم شديد الوديقة ، ترقص فيه الآجال .

قال الشعبي : « إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان : العقل والنسك . فإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً ، قال : هذا أمر لا يناله إلا العقلاء... فلم يطلبه ، وإن كان عاقلاً ولم يكن ناسكاً ، قال : هذا أمر لا يناله إلا النُسَّاك . فلم يطلبه ، فقال الشعبي : ولقد رهبتُ أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما ، لا عقل ولا نسك » .

وكمال العقل: حُسن المعرفة بالله، وحُسن الطاعة، وحُسن الصبر على أمره. وعقلك يا أخي لا يتسع لكل شيء، ففرِّغه لأول المهم من أمرك ، وليس من العقل أن تذّر من الخير ما لا بدّ منه .. فاللهم ارزقنا عقلاً تنفعنا به ، واجعلنا نعقل عنك .

الثالث والعشرون : التحوُّل عن البيئة المثبّطة :

قال شيخني المكرّم - ومن هو أحبُّ إلي من سواد عيني - محمد بن أحمد بن إسماعيل : « إن للبيئة المحيطة بالإنسان أثراً جسيماً لا يخفى ، فإذا كانت بيئة مثبّطة داعية إلى الكسل والخمول وإيثار الدُّون ؛ فإن على المرء أن يهجرها إلى حيث تعلو همته ، كي يتحرّر من سلطان تأثيرها ، وينعم بفرصة الترقّي إلى المطالب العالية .

تقول ابنة السعدي وهي تلومني أما لك عن دار الهوانِ رحيلُ
فإنَّ عناء المستنيم إلى الأذى بحيث يذلُّ الأكرمون طویلُ

(١) قال ابن أبي الدنيا : الرضفة : الصخرة ، المخض : اللبن ، الأرفى : الطباء ، الرافية : اللبن الذي لم يخرج زبده .

وعندك محبوبك السَّراة مطهَّم وفي الكف مطرورُ الشباة صقيل^(١)

وأشدُّ الناس حاجةً إلى تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة : الحديثُ العهدُ بالتوبة ؛ فإن من شأن التحوُّل من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة : أن ينسيه ما يجذبه إلى صُحبة السوء وأماكن السوء ، فيجتمع قلبه ، ويلتئم شمله ، وتتوحد همته ، وتتوجَّه بصدقٍ وعزمٍ إلى أسلوب من الحياة جديد ، وهذا عين ما أشار به « العالم » الواعي على قاتل المائة حين شفع قوله : « نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة » ؛ بقوله : « انطلق إلى أرض كذا وكذا ؛ فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء » . ولما جاء الموت ، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، كان قربه إلى القرية الصالحة بالنسبة إلى بلد السوء سبباً في قبض ملائكة الرحمة إياه ، ففي بعض الروايات : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ ، فجُعل من أهلها » . وفي رواية : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي ، وإلى هذه أن تقرَّبي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » . وفي رواية : « فنأى بصدوره نحوها » .

ولعلَّ هذا المعنى كامن أيضاً في تشريع نفي الزاني غير المُحصن وتغريبه سنة بعيداً عن وطنه ، كي تجتمع عليه عقوبة بدنية بالجلد ، وعقوبة قلبية بالنفي ، وفي الوقت نفسه يُبعد عن مسرح الجريمة كي ينسى ذكراها ، ولا يبقى حيث يُعاملُ باحتقار وإهانة ، ويتعرَّض للمضايقات ، ويُعطى فرصة كافية لاستئناف التوبة الصادقة والحياة الكريمة^(٢) .

(١) فرس محبوبك : قوي شديد ، سراة الفرس : أعلى متنه ، والمطهَّم : التأم المتناهي في الحسن ، والمطرور : ذو المنظر والرواء والهيئة الحسنة ، والشباة : حدُّ طَرَف السيف ، والصقيل : المجلو .

(٢) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

أخي ، إن الماء يفسد بقربه من الجيف وكذا الهواء ، وإذا بعدت قليلاً عن مكان الجيف ، يزول ما كنت تجده ، فكيف بأنفاس العصاة .. ألا تنظر إلى فعل المعصية بآبار ثمود بعد آلاف السنين ؟! لَمَّا مَرَّ عليها الصحابة وأرادوا أن يستقوا منها فمنعهم رسول الله ﷺ ، وأمرهم أن يلقوا بعجينهم إلى النواضح . فالفرار الفرار من بيئة الكسل والركود ودناءة الهمم .

ولا تتخذ بالسير رُفقةً قاعدٍ ودعه فإن الشوق يكفيك حاملاً «فتزع المدعو من بيئته وغمسه - لفترة كافية - في بيئة أخرى ؛ يسهل تطبيع هذا التائب بغير قيم ومفاهيم جديدة ، مع تطهيره من القيم المراد نزعها من قلبه ، وبصورة سلسة وتلقائية وفعالة ، فالجوهر إذا سقطت في مكان نجس فيحتاج ذلك إلى كثير من الماء حتى تُنظف ، إذا صبيناه عليها وهي في مكانها ، ولكن إذا أخرجناها من مكانها سهل تنظيفها بالقليل من الماء»^(١) .

الرابع والعشرون : مصاحبة صاحب الهمة العالية :

أخي : اعلم أن الرجل بلا خدين ، كذي الشمال بلا يمين ، فاتخذ ذوي الهمم العالية أعواناً ، واخلط نفسك مع الأبرار ، وطهرها من الفجار واجتنب الصغار الأخطار ، اللثام الأقدار ؛ فالمرء يُعرف بقرينه . فاصحب من يحملك في سيرك إلى الله عز وجل لا من تحمله

ولا تتخذ بالسير رُفقةً قاعدٍ ودعه فإن الشوق يكفيك حاملاً

أخي : قد سمعت أخبار المتقين فسير في سرهم ، وقد عرفت جدّهم فتناول من شربهم ، ثم سل من أعانهم يُعنعك .

لا يُؤيِّسُكَ من مجدٍ تباغده فإن للمجد تدرجاً وترتياً
إن القناة التي شاهدت رفعتها تنمى وتنبُت أنبواً فأنبوا

فاسلك طريقهم تكن رفيقهم، وانزل بواديهم يصوت بك صوت حاديهم،

إن كنت في جوارهم حملوك إلى ديارهم ..
أخي : اصحب مَنْ يعظك بلحظه قبل وعظه بلفظه ، ومن كان بعالي
الخير موصوفاً لا وصافاً ، فإن الواو والراء والدال لا تشمُّ منها رائحة الورد ،
فاصحب أهل المعاني ودع أرباب الدعاوي .

هاتيك ربوعهم وفيها كانوا بانوا عنها فليتهم ما بانوا
ناديتُ وفي حشاشتي نيرانُ يا دارُ متى تحوّل السُكّانُ
رؤية وجوه الصالحين تشخذ الهمم فكيف بكلامهم ونُصّحهم .
كان الناس إذا رأوا وجه وكيع بن الجراح قالوا : هذا ملك . وإذا رأوا
وجه محمد بن سيرين سبحوا الله ؛ لخيال النور التي على وجهه .
قال رسول الله ﷺ : « أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى »^(١) .
إن لم تكن مع القوم في السّحر ، تلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ،
ترى في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار « وجوه زهاها الحسن
أن تبرقعا » . .

قال جعفر بن سليمان : « كنتُ إذا وجدت من قلبي قسوة ، غدوت
فنظرت إلى وجه محمد بن واسع ، كان كأنّه ثكلي »^(٢) .
وقال الفضيل بن عياض : نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب ، ونظر
الرجل إلى صاحب بدعة يُورث العمى ، من جلس مع صاحب بدعة ، لم يُعط
الحكمة . وقال عبد الله بن المبارك : « إذا نظرتُ إلى الفضيل جدّد لي الحزن ،
ومَقَّتْ نفسي . ثم بكى »^(٣) .

(١) حسن : رواه الحكيم عن ابن عباس والطبراني في الكبير ، والمروزي ، وأبو نعيم ،
والضياء وابن المبارك عن سعيد بن جبير مرسلًا ، وحسنه الألباني في الصحيحة
رقم ١٧٣٢ ، والسلسلة رقم (٢٥٥٤) .

(٢) السير ٦ / ١٢٠ .

(٣) السير ٨ / ٤٣٨ .

إن كان هذا نظر الأكابر من شيوخ الإسلام إلى العباد.. وكيف يؤثر في علو هممتهم ويشحذها ، فما فعله في غيرهم !!؟

هذا قول ابن المبارك في الفضيل بن عياض ، فما يقول الفضيل بن عياض عن أبي إسحاق الفزاري ؛ قال الفضيل بن عياض : « ربما اشتقتُ إلى المِصْبِصَةِ ، ما بي فضل الرِّباط إلا أن أرى أبا إسحاق رحمه الله »^(١) .

وإن كان الأكابر من العباد والعلماء يحتاجون إلى من يفتش ويُخرج لهم الخبايا من الدقائق التي قد تذهب بنور العمل فما الظن بغيرهم !!؟

« قال ابن شاذب : قَسَمَ أميرُ البصرة على قُرَائِها ، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ ، فقال له ابن واسع : قبلتُ جوائزهم ؟! قال : سلُ جِلسائي . قالوا : يا أبا بكر ، اشترى بهم رقيقًا فأعتقهم . قال : أنشدك الله ، أقلبُك الساعة على ما كان عليه ؟ قال : اللهم لا ، إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع »^(٢) .

«قال أبو عبد الله الأنطاكي : اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا ، فرقَّ سفيان وبكى ، ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة . فقال له الفضيلُ : لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرَّ علينا منه ؛ أَلَسْتَ تَخَلَّصْتَ إلى أحسن حديثك ، وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي ، فتزَيَّنْتَ لي وتزَيَّنْتُ لك؟ فبكى سفيان وقال: أحبيتنى أحياءك الله»^(٣).. فإن كان سفيان وهو من هو يحتاج إلى توجيه الفضيل ، فكيف بمن لا يساوي غبار نعل الثوري !!؟

« فيا أطروش الهوى ، صاحب مَنْ يسمع .. يا أعمى البصيرة ، امش

(١) السير ٨ / ٥٤١ .

(٢) السير ٦ / ١٢٠ .

(٣) السير ٨ / ٤٣٩ .

مع من يبصر.. تشبه بالصالحين تُعدّ في الجملة؛ هذا الطاووس يحبّ البساتين فهو يوافق الأشجار ، إذا ألقت ورقها ألقي ريشه ، فإذا اكتست اكتسى .

لو سِرّت في حزب المتقين لعرفوا لك حقّ الصّحبة .

يا من كان لهم رفيقاً ، فأصبح لا يعرف لهم طريقاً . اطلب اليوم أخبارهم واتبع في السلوك آثارهم. فإن وقعت ببعضهم حملك إلى أرضهم^(١).

محت بعدكم تلك العيون دموعها فهل من عيون بعدها نستعيرها
رحلنا وفي سِرّ الفؤاد ضمائراً إذا هبّ نجدّي الصبا يستثيرها
ترفّق رفيقي هل بدت نار أرضهم أم الوجد يذكي ناره ويثيرها
سقى الله أياماً مضت ولياليا تضيّع ريّاها وفاح عيرها

يا من كثر تردّده إلى المجلس ولم يزل بعيداً عن همم القوم ، لا تضجر فللدوام أثر ، جالس البكّائين يتعدّد إليك حزنهم ؛ فتأثير الصّحبة لا يخفى ، أما ترى دودَ البقول أخضر ؟!

يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج ، أقلّ الأقسام أن يبكي رحمة لهم .

ولمّا وقفنا في الديار تشابهت جسوم براهنّ البلى وطلول
فباكٍ بداءٍ بين جنبه عارف وباكٍ بما جرّ الفراق جهول

« صاحبّ علاة الهمم وصافهم ، واستفدّ من أخلاقهم وأوصافهم . إن لم يكن لك مكنة البذر ، ولم تطلق مراعاة الزرع ، قف في رفقة ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ .

إن صدقت في طلبهم فانهض وبادر ، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر ، تعرّض لمن أعطاهم ، وسلّ فمولاك مولاهم ، ربّ كنز وقع به فقير ،

ورُبَّ فضل فاز به صغير.. علمَ الخضر ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطِّي عن داود .

لا تلتفت إلا إلى من دلَّك على الله وعلى الطريق الموصلة إليه. اسلكوا جادة القوم لعل مشاعلهم تلوح لكم ؛ تعلّقوا بغبارهم لعل الحادي يُنوّه بكم ، صوّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقة لكم ، ابكوا على تأخركم لعل عطف الرحمة تنعطف نحوكم .

ويا حداة الظعن قد أسلمني إلى الضنا فراقكم لي فقفوا
لعلني أن أشتفي بنظرة يبل منها المستهام المدنف
ففي الضلوع جمرة ما تنطفي وفي الشئون عبرة ما تنزف
أخي: زاحم التائبين، وادخل في حزب البكائين، وكل غريب للغريب نسيب.
قال محمد بن يوسف: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرد بجَدَّتْكَ يدعو لك وأنت بين أطباق الثرى»^(١) .

وقال الحسن البصري : « إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكرّونا بالدنيا ، وإخواننا يذكرّونا بالآخرة » .
قال إبراهيم النخعي : « جالسوا التوايين ؛ فإنهم أرقّ الناس قلوباً، ورحمة الله إليهم أقرب »^(٢) .

كان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو اتباع للأمر، سأل عنه، وأحبّ أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.
«قال رحمه الله : لقد رأيت أقواماً صالحين ؛ رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جبة من لبود قد أتت عليها سنون ، ورأيت أبا داود الحفري وعليه جبة مُخرقة، قد خرج منها القطن، وهو يُصلي فيترجّع من الجوع، ورأيت أيوب

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب ص ٩١ .

(٢) والموعود الله ، لخالد محمد خالد ص ٣١ .

النجار وقد خرج من كل ما يملكه ، وكان في المسجد شابٌ مصفر يقال له : العوفي ؛ يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي ^(١) .

قال إسماعيل الديلمي : كنتُ في البيت عند أحمد بن حنبل ، قال : فدخلت إليه فقلت : يا أبا عبد الله ، بالباب شابٌ عليه أطمارٌ شعر يطلبك . قال : فخرج إليه فسلم عليه ، فقال له الفتى : يا أبا عبد الله ، ما الزهد في الدنيا ؟ فقال له أحمد : ثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قصر الأمل . فقال له : يا أبا عبد الله ، صفه لي . قال : وكان الفتى قائماً في الشمس والفيء بين يديه ، فقال : هو أن لا تبلغ من الشمس إلى الفيء . قال : ثم ذهب ليولّي ، فقال له أحمد : قف . قال : فدخل ، فأخرج له صُرة فدفعها إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، من لا يبلغ من الشمس إلى الفيء أي شيء يعمل بهذه ؟ ثم تركه وولّى ^(٢) .

لله درك يا أحمد .. إن كان هذا حال مَنْ يسأله ، فكيف حال من دنا منه وخالطه ؟!

وإخوانه الأذنونَ كلٌّ موفّقٍ بصيرٍ بأمر الله يسمو إلى العلا
انظر إلى علو همة من يجالس الأكابر كإمام أهل السنة أحمد بن حنبل :
فهذا أبو بكر المروزي تلميذ أحمد بن حنبل ، وكان خصيصاً بخدمة أحمد ، كان يبعثه في حوائجه ويقول : كل ما قلت فهو على لساني وأنا قلته . وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، ولما قدم أحمد من العسكر كان يقول : جزى الله أبا بكر المروزي خيراً . وهو الذي تولّى إغماض أحمد لما مات وغسله .
قال أبو بكر الخلال : خرج أبو بكر المروزي إلى الغزو فشيّعه الناس إلى سامرا ، فجعل يردهم فلا يرجعون ، قال : فحرزوا فإذا هم بسامرا - سوى

(١) المدهش ص ٣١٢ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ١٩٤ .

من رجع - نحو من خمسين ألف إنسان . فقيل : يا أبا بكر ، احمد الله فهذا علم قد نُشِر لك . فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لي ، وإنما هذا علم أحمد ابن حنبل^(١) .

وبدر بن أبي بدر - أبو بكر المغازلي - كان الإمام أحمد يقدمه ويكرمه ويقول : من مثل بدر قد ملك لسانه ، وكان صبوراً على الفقر والزهد .
وزكريا بن يحيى الناقد : كان عابداً ، وكان أحمد يقول عنه : هذا رجل صالح وكان يقول : اشتريت من الله تعالى حوراء بأربعة آلاف ختمة ، فلما كان آخر ختمة سمعت الخطاب من الحوراء وهي تقول : وفيت بعهدك ، أنا التي اشتريتني . فيقال : إنه مات عن قريب^(٢) .

« وعبد الوهاب الوراق جمع بين العلم والتقى ، وقيل لأحمد : من نسأل بعدك ؟ فقال : سلوا عبد الوهاب ؛ فإنه رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق^(٣) .

وإسحاق بن منصور الكوسج تلميذ أحمد بن حنبل ، وهو الذي دَوَّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه ، فبلغه أنَّ الإمام رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه ، فجمع رحمه الله تلك المسائل في جراب وحملها على ظهره وخرج ماشياً من نيسابور إلى بغداد ، وعرض خطوط أحمد عليه في كل مسألة استفتاه بها ، فأقر له بها ثانياً ، وأعجب أحمد بذلك من شأنه^(٤) .

من أراد أن ينظر إلى علو الهمة ، وكيف تُكتسب بمرافقة الأئمة علاء الهمة ، فلينظر إلى الأئمة وتلاميذهم وإخوانهم الذين رافقوهم .

فابن عباس يضع الكبل في رجل عكرمة ليتعلم القرآن والسُّنن ، ومغيرة

(١) المصدر السابق ص ٦١١ .

(٢،٣) المصدر السابق ص ٦١٦ .

(٤) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١ / ١١٤ .

الضبي يذاكر إخوانه الفقه إلى الفجر ، وكذا القاضي التابعي ابن شبرمة يذاكر إخوانه إلى الفجر ، والزهرى يلزم ابن المسيب ثمانين سنين فتعلو همته بصحبته ، يقول عنه ابن أخيه : « جمع عمي القرآن في ثمانين ليلة » . وابن القاسم تلميذ مالك بن أنس ، يأتي مالكا سحرا ، فيسأله عن المسألة والمسألتين والثلاثة ، وكان يتوسد عتبته ، وأناخ بباب مالك سبع عشرة سنة .

وأبو يوسف يموت ابنه فيترك جهازه ودفنه لأهله ويحضر درس أبي حنيفة .

ومحمد بن الحسن الشيباني تعلو همته بصحبته لأبي حنيفة ، فلا ينام إلا القليل ، ويقول : نامت عيون المسلمين تعويلا علينا ، فإذا نمنا ففيه تضيق الدين .

وقد مرت بك قصة أسد بن الفرات مع أستاذه محمد بن الحسن الشيباني . والمزني تلميذ الشافعي .. من قال فيه الشافعي : « المزني ناصر مذهبي .. » يؤلف مختصره في عشرين سنة ، يجمع ما تفرق من كلام الشافعي ، وإذا فرغ من تبليض مسألة أودعها مختصره صلى ركعتين !! . من أراد أن ينظر كيف تُشجذ الهمم بمرافقة الصالحين وخدمتهم ، فليُنظر في العراقي وتلميذه الهيثمي وابن حجر ، وفي النووي وتلميذه وخادمه علاء الدين علي بن العطار :

كان ابن العطار لشدة ملازمته - للنووي - وتحققه به ، يقال له : « مختصر النووي » ولشدة إعجاب ابن العطار بشيخه النووي - ويحق له ذلك - انقطع للتلمذة عليه ست سنوات ، فيقول رحمه الله : وكانت مدة صحبتي له مقتصرًا عليه دون غيره ، من أول سنة سبعين وستائة وقبلها بيسير إلى حين وفاته .

يقول ابن العطار عن شيخه النووي : « وكان رحمه الله تعالى رفيقا

بي ، شقيقاً علي ، لا يُمكن أحداً من خدمته غيري ، على جهد مني في طلب ذلك منه ، مع مراقبته لي - رضي الله عنه - في حركاتي وسكناتي ، ولطفه بي في جميع ذلك ، وتواضعه معي في جميع الحالات ، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات ، وأعجز عن حصر ذلك » .

قال النووي عن تلميذه وخادمه ابن العطار : « قد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه » ... فللخادم والتلميذ كرامات .. فما أحلاها من علامات لعلو الهمة !!

قال ابن العطار : « وأذن لي - رضي الله عنه - في إصلاح ما يقع لي في تصانيفه ، فأصلحت بحضرته أشياء ، فكتبه بخطه ، وأقرني عليه ، ودفع إليّ ورقة بعدة الكتب التي كان يكتب منها ويصنّف بخطه ، وقال لي : إذا انتقلت إلى الله تعالى ، فأتمم « شرح المهدّب » من هذه الكتب . فلم يقدّر ذلك لي » ^(١) .

وكان ابن العطار يأخذ على شيخه في الدرس ، فقليل له في ذلك ، فقال : « لا تسقط الثمرة من الشجرة إلا بهزّ الأفنان ، أو التقطّف بالبنان » ^(٢) .
وأيضاً سيرة ابن تيمية مع تلاميذه : الذهبي وابن كثير وابن القيم خاصة :

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : « كان أطيب الناس عيشاً وأشرهم صدرًا ، وأقواهم قلبًا ، وأسرهم نفسًا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتدّ بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضائق بنا الأرض أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحًا وقوةً و يقينًا وطمأنينة » ^(٣) .

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار ص ٥٥ .

(٢) طبقات الشافعية لابن هداية الله ص ٢٢٨ .

(٣) الوابل الصيب ص ٧٦ .

ولله در يحيى بن معاذ إذ يقول : « ولَّى الله ريحان في الأرض ، فإذا شمَّه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم »^(١) .
 وكان أحمد بن حرب يقول : « ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم ، وليس شيء أضرَّ على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم » . قال ابن عباس : النظر إلى وجه الرجل يدعو إلى السُّنة عبادة .

وانظر إلى صُحبة الأخيار من طلاب العلم كيف تُعلي الهمم :
 قال الحافظ جعفر بن درستويه : « كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المدني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ ، فنقعد طوال الليل ؛ مخافة ألا نلحق من الغد موضعاً نسمع فيه ، فرأيتُ شيخاً في المجلس يبول في طيلسان ، ويُدرج الطيلسان ؛ مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام للبول »^(٢) .
 قال ابن عقيل الحنبلي : « عصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة ، وقصر محبتي على العلم وأهله ، فما خالطتُ لعاباً قطُّ » .
 وعلى المرء أن « يَحْتَرِزَ عن مجالسة صاحب السوء ؛ ليقصي ولاية شياطين الجن والإنس من صُحْن قلبه ، فيصفى عن لوثة شيطانية »^(٣) ، كما قال الغزالي فنعوذ بالله من صحبة البطالين .

أنت في الناس تقاسُ بالذي اخترتَ خليلاً
 فاصْحَبِ الأخيارَ تَعْلُو وتَنْلُ ذِكْراً جميلاً

فصاحبُ يا أخي أهل المعاني المتيقِّظين للدقائق والثواني ؛ فإن صحبة هؤلاء تعلِّمُ منافسة الزمان .. والله درُّ إقبال إذ يقول :

(١) تنبيه المغترين للشعراني ص ١٧ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٢ / ١٣٨ .

(٣) أيها الولد المحب ، للغزالي ص ١٣٠ .

هَبْ نَجِيًّا يَا وَلِي النِّعْمَةِ محرَّمًا يَدْرِكُ مَا فِي فِطْرَتِي
هَبْ نَجِيًّا لَقِنَّا ذَا جَنَّةٍ ليسَ بالدُّنْيَا لَهُ مِنْ صِلَةٍ
« قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا رزقكم الله - عز وجل -
مودَّةً امرئ مسلم فتشَبَّثُوا بها .

وقال رضي الله عنه : لقد أحببت في الله - عز وجل - ألف أخ ، كلهم
أعرف اسمه واسم أبيه واسم قبيلته ، وأعرف مكان دارهم ^(١) . أي أنه كان
بزورهم ويأتيهم لقوله : « أعرف مكان دارهم » .. رضي الله عن الفاروق فلا
حياة لمن لا إخوان له .

وكان الثوري يتمثل :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدَتْ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمتْ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدَتْ
فَإِذَا وَجَدَتْ أَخَ الْأَمَانَةِ وَالتَّقَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدَدْ
وكتب الأحنف بن قيس إلى صديق له : « أما بعد : فإذا قدم عليك
أخ لك موافق ، فليكن منك مكان سمعك وبصرك ... فانظر إلى هذا وأشباهه
فاجعلهم كنوزك وذخائرك ، وأصحابك في سفرك وحضرك ؛ فإنك إن تقرَّبهم
تقرَّبوا منك ، وإن تباعدهم يستغنوا بالله - عز وجل - والسلام » .
ولله درُّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ يقول : « عليك بإخوان الصدق ،
فَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ زَيْنٌ فِي الرِّخَاءِ وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ » . ولا تكن أخي مناخَ
البطَّالين .

الخامس والعشرون : قراءة تراجم ونسب سلف الأمة :

لله درُّهم من سادة علماء السلف وعُبَّادِهِ .
وَمَنْ عَجِبَ أَنِّي أَجِنُّ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي
وَتَبْكِيهِمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْكُو النُّوْيَ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

ولله درُّ القائل :

إذا حضر الشتاء فأنْتَ شمس
جُزيت عن البرية كل خير
بوجهك نستضيء إذا سرينا
وذكركَ في المسامع خير هادٍ
فدثك نفوسنا عن كل هول
ولله درُّ القائل :

حالت لفقدكم أيامنا فغدت
لئسق عهدكم عهد السرور فما
سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
وقول القائل :

تضيّق بنا الدنيا إذا غبتُم عنا
بعادكم موتٌ وقربكم حيا
وتزهق بالأشواق أرواحنا منّا
ولو غبتُم عنا ولو نفسًا مُتّنا
نعيش بذكراكم ونحيا بقرّبكم
ألا إن تذكّار الأحبة يُنعشنا
ماذا يفعل الرجل منا وقد تبدل الزمانُ وأهله .. إن البعد - ولو قليلًا -
عن الطيبين وذكرهم؛ موتٌ لا يكاد يطيقه عاقل .

فهذا الصحابي عثمان بن أبي العاص يقول عنه الحسن : « تزوّج عثمان
ابن أبي العاص امرأةً من نساء عمر بن الخطاب فقال : والله ما نكحْتُها رغبة
في مال ولا ولد ، ولكنني أحببتُ أن تخبرني عن ليل عمر »^(١) .
وعن ابن أبي ليلى : تزوّج رجل امرأة ابن رواحة ، فقال لها : تدرين
لم تزوجتك ؟ لتخبرني عن صنيع عبد الله في بيته^(٢) .

(١) الزهد لابن حنبل ص ١١٨ ، ١١٩ ، ورجاله ثقات .

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ٦ / ١٧٨ - ١٧٩ ، وصحّح سنده ، ورواه الذهبي
في السير ٣٣/١ .

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري : « تزوّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتُبُ الشافعي ، مات ، لم يتزوّج بها إلا للكتب^(١) ، فلما قرأ كتبه قال : ما كنت أعلم أنّ الشافعي في المحل ، ولو علمت لم أفارقه » .
ولله درّ من قال :

تعلّلا أن حُرْمنا طيبَ رؤيتِهِ مَن فاته العينُ هَدَّ الشوقُ بالأثرِ

« فإن أخبار العلماء العاملين والنهباء الصالحين من خير الوسائل التي تفرس الفضائل في النفوس ، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة ، وتبعثها إلى التأسّي بذوي التضحيات والعزمات ؛ لتسمو إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات .

و « الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى يثبّت الله بها قلوب أوليائه » .
قال أبو حنيفة رحمه الله : « الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إلَيَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم » .

وقال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جند من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المریدين . فقل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وقال آخر : استكثروا من الحكايات فإنها دُررٌ ، وربما كانت فيها الدرّة اليتيمة .

وسماع أخبار الصالحين لذّة ما تفوقها لذّة ، وخير وسيلة لإشعال العزائم ، وإثارة الروح الوثابة ، وقُدح المواهب ، وإذكاء الهمم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفع عن سفاسفها ، والائتساء بالأسلاف الأجلّاء - هو قراءة سير نبغاء العلماء الصلحاء ، والوقوف على أخبار الرجال

(١) السير ٧٠ / ١٠ ، وتاريخ ابن عساكر ٢ / ٤ / ١٥ ، والحلية ٩ / ١٠٢ .

العظماء، والتعلمي من اجتلاء مناقب الصالحين الربانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجدين؛ فذلك خير مهماز لرفع الهمم، وشد العزائم، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيات، وتفجير النبوغ والطاقات المدفونة، والصبر على اجتياز العقبات الصعاب، واحتلال ذرا المجد الرفيع، وكسب الذكر الحسن، واغتنام الباقيات الصالحات»^(١).

ولسنا نريد بذكر التراجم قصصاً وحكايات، دون فقه وعلم نافع يُعرف الناس بدينهم فيحملهم على العمل، كبنی إسرائيل قال عنهم ﷺ: «إن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا»^(٢). أي لما هلكوا بترك العمل أدخلوا إلى القصص وعولوا عليها. قاله المناوي.

لا نريد هنا.. لا نريد أن نتبع سنن من كان قبلنا... إنما نريد تطبيق الأئمة العاملين وفهمهم للكتاب والسنة.. أناس سيط الحق بدمائهم، وامتزج حب القرآن والسنة بلحومهم ودمائهم، وكان الاتباع أحب إليهم من سواد أعينهم.. فكانوا قدوة في العلم والعمل.

ومطالعة التراجم، وسبر مواطن العظة في حياة العظماء؛ وسيلة هامة من وسائل التربية، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

ما في الخيام أخو وجد يريحك إن بكثته بعض شأن الحب فاغترب
« قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه »^(٣).
قال ابن الجوزي: سبيل طالب الكمال في طلب العلم، الاطلاع على الكتب التي قد تخلقت من المصنفات، فليكثر من المطالعة؛ فإنه يرى من علوم

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٧ - ١٨.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والضياء، وأبو نعيم في الحلية، والأشيلي في الأحكام عن خباب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٤١).

(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٨٢.

القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ، ويحرّك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة .

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همّة عالية فيقتدي بها المبتدي ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد ، فالله الله ، وعليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم ، وأخبارهم ؛ فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ، كما قال :

فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلّي أرى الديارَ بسمعي
قال ابن الجوزي : « لو قلت : إني قد طالعت عشرين ألف مجلد ،
كان أكثر ، وأنا بعدُ في الطلب ؛ فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سير
القوم ، وقدر هممهم ، وحفظهم ، وعبادتهم ، وغرائب علومهم ؛ ما لا يعرفه
من لم يُطالع ، فصرت أستزري ما الناس فيه ، وأحتقر همم الطلاب . والله الحمد »^(١) .
السادس والعشرون : الصبر والثابرة :

فإنما ثنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :
« وطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبس قلبه في
طلبه ومطلوبه ، وحبسه عن الالتفات إلى غيره ، وحبس لسانه عمّا لا يفيد ،
وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته ، وحبس جوارحه عن المعاصي
والشهوات ، وحبسها على الواجبات والمندوبات ، فلا يفارق الحبس حتى يلقي
ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه . ومتى لم يصبر على هذين
الحبسَيْن وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات ، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند الخروج
من الدنيا ؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى
الحبس »^(٢) .

(١) صيد الخاطر ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) الفوائد ص ٧٢ .

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعةً فعند اللقاء ذا الكدّ يصبحُ زائلاً
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبحُ ذا الأحزانِ فرحانَ جاذلاً
ومن تلمَّح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر .

أخي : هان سهر الخدّام لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك ، أما نحن
فألفنا عجز العادة ، فلو علث بنا هممنارُي المعالي ؛ للاحث لنا أنوارُ العزائم ..

أخي : نزول همّة الكساح دَلّاه في جُبّ العذرة ، وصبرُ أهل اليقين
جعلهم أئمة الدين . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشفق إن قلت بيننا طوال الليالي أو بعيد المفاوز
قد علمت أين المنزل فاحدُ لها تسيرٌ ، وأعلى الهمم همّة من استعد للقاء
الحبيب وصبر ، وقَدَّم التقادم بين يدي الملتقى .

لا بدّ من مرابطة على الحقّ الذي عرفت جماله ، والإيمان الذي ذقت
حلاوته ، فحذار من التلّون .

كل يوم تتلوّن غير هذا بك أجمل

جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان ، وأنت للغالب
عليك من الثلاثة؛ إن غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك ، وإن غلبك
هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب .

علّمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احتراماً لنعمتك ،
وخوفاً من سطوتك ، وكم علّمك معلّم الشرع وأنت لا تقبل !!

أتى الكلبُ إلى الأسد فقال له : يا ملك الغابة غير لي اسمي ؛ فإن كلب
اسم قبيح . فأعطاه قطعة من اللحم وقال : احتفظ بها إلى الليل ؛ فإن احتفظت
بها غيرنا لك اسمك . فلما كانت الظهيرة واشتدّ به الجوع ورأى اللحم لم يصبر
ولم يجاهد نفسه ، وجعل ينظر إلى اللحم ويقول : وما كلب .. إن « كلب »
اسم جميل .. كلب كلب. ثم أتى إلى السبع ليلاً فقال : غير لي اسمي . فقال
له السبع : ائتمناك على قطعة من اللحم إلى الليل فلم تصبر ؛ فكيف نأتمنك

على الاسم الجميل !!؟

ياسائر إن إليه الدُّرْب لا تقفوا طاب الوصول لمحرومٍ تمنّاهُ
قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[العنكبوت : ٦٩] . فعلق سبحانه الهداية بالجهاد ؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم
جهاداً ، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد
الدنيا ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه .
ولا يتمكّن من جهاد عدوّه في الظاهر إلّا من جاهد هذه الأعداء باطنًا ،
فمن نُصِر عليها نُصِر على عدوه .

وفاز بالوصل من قد جدّ وانقشعت
عن أفقه ظلمات الليل والسُّحب
فعاد كلُّ أخي جبن ومَعَجَزَة
وحارب النفس لا تلقيك في الحَرْب
واسر في غمرات الليل مهتديًا
بنفحة الطّيب لا بالعود والحطّاب
وخذ لنفسك نورًا تستضيء به
يوم اقتسام الورى الأنوار بالرُّتب
قال رسول الله ﷺ : « أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن
والحارث »^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق
الأسماء هَمَام وحارث ، وشرُّ الأسماء حرب ومُرّة »^(٢) .
قال المناوي: «أصدق الأسماء همام وحارث، وذلك لمطابقة الاسم لمعناه؛
إذ كلُّ عبدٍ متحرك بالإرادة ، والهم مبدأ الإرادة ، ويترتب على إرادته حرثه
وكسبه ، فإذا لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناه »^(٣) .

(١) صحيح : رواه ابن عدي عن أنس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم
(٩٠٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن وهب في الجامع عن عبد الوهاب بن بُخت ، وصحّحه الألباني
في الصحيحة رقم (١٠٤٠) .

(٣) فيض القدير للمناوي ١ / ١٦٩ .

السابع والعشرون : الخلوة :

« الخلوة مَهْرُ بَكْرِ الْفِكْرِ ، وَسَلَّمُ معراج الهمة ، حريمُ العزلة مَصُون من عَيْبِ غَيْثِ عَيْثٍ ، إذا خلت دار الخلوة عن الصور ؛ تَفَرَّغَ الْقَلْبُ لملاحظة المعاني .

أَوْحَشْتَنِي خَلَوَاتِي بَكَ مِنْ كُلِّ أَنْيَسٍ
وَتَفَرَّدْتُ فَعَايِنُ — تَكَّ بِالْغَيْبِ جَلِيسِي
وَدَعَانِي الْوَجْدُ وَالْحُسْبُ إِلَى الْمَعْنَى النَّفِيسِ
فَبَدَأَ لِي أَنْ مَهَرَ أَلْ — حَبَّ أَنْفَاسُ النَّفُوسِ
فَكَتَبْتُ الْعَهْدَ لِلْحُسْبِ عَلَى طُرْسِ الرَّسِيسِ

يا هذا ، إذا رُزقت يقظة ، فصنها في بيت عزلة ، فإن أيدي المعاشرة نهابة . احذر معاشرة الجُهَّال فإن الطبع لص ، لا تصادقن فاسقاً فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك .

الأنس بالأنس ريق ، المخالطة تُوجب التخليط ، وأيسر تأثيرها تشتيتُ الهمِّ .
أقل ما في سقوط الذئب في غنم إن لم يُصَبَّ بعضها أن ينفر الغنم
قطع العلائق أصل الأصول ، تأملوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء الصافي
كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدر ، أتدرون لم ؟ لأنه يرى صورة نفسه في
الماء الصافي وصورة غيره ، فيكدره حتى لا تتبين في الصور فيتهدى بالشرب .
لا يظهر في خلوة المتيقظ إلا الحق ؛ كان أويس يهرب من الناس فيقولون :
مجنون ^(١) ، وهو كما قال رسول الله ﷺ : « سيد التابعين » .

الثامن والعشرون : واقع المسلمين المرُّ والمؤلم يصنع الرجال ويُعلي الهمم :
وآه من ذلة تُرادُّ للجباه ..

أَيْنَ يَا قَلْبُ أَسْكَبُ الدَّمْعَ أَتَى طُفْتُ أَلْقَى مَذَلَّةً وَخُنُوعاً

آه وألف آه من قوافل الضياع المشرّدة .

قوافل تمضي بين أفواج رُضّع
وبين صبايا يا لذلّ دموعها
قوافل تمضي وهي تسحبُ خطوها
تكادُ عيونُ الطفل تسأل من أنا
أتحملني دورُ النصارى وبيعة
لتنزع مني فطرةً وطهارةً
وأحزانٍ ثكلى أو تباريحٍ أيم
وأفواجٍ أطفالٍ وأمواجٍ يُتَم
ذليلاً على شوكٍ مُدَمٍّ ومُوضِمٍ^(١)
إلى أين أمضي يا فيافي تكلمي
وساحاتٍ شريكٍ أو منازلٍ سُوم
ويُعرَسَ بي شركٍ وفتنةٌ مأثم

آه وألف آه من واقعنا المرّ !!

اسألوا الأرض عن رُفات الضحايا
إنما رُزءُ أمتي في رجالٍ
يتعالون فوقنا ونراهم
وبلّونا شئونهم فرأينا
كشياهِ الجزارِ تسعى إليه
وقبيحٌ من الفتى أن يكونَ الـرَّأسَ في قومه فيصبحُ ذليلاً
أمتي يا أعزَّ شيءٍ بقلبي
رحل العمرُ والجنّاحُ مهيضُ
جازه غيرُنا ونحن نخوضُ
رحل العمرُ والليالي اكتئابُ
أمتي هذه المصائب زُنْدُ
يُشعلُ العزمَ حين يغفو النهوضُ^(٢)

من آلامنا تبرزُ آمالنا .. والرجال تصنعهم المِحن .. وابتسامة الفجر

الوليد تبرزُ من أشد ظلمة في الدياجي ..

(١) مُوضِم : مؤلم .

(٢) نقوش على واجهة القرن الخامس عشر ، لعبد الرحمن العشماوي ص ٨١ - مكتبة العبيكان .

متى يفيق النائمون ؟!

هل بقي شيء من الذل لم نتجرعه على أيدي إخوان القردة والصليبيين ..

القدس ويا لذل القدس .. البوسنة ويا لذل البوسنة ..

أضيعوها كما كنتم أضعت قبلها القدس

وسيروا في جنازتها فقد أتقنتم الدرسا

وأصبحتم لقاتلها جنودًا تحفر الرمسا

وأصبحتم لقاتلها نعالًا تتقن الدوسا

وصيرتم يا لجهلكم عبيدًا بللها خرسا

أنسلمها لقواد يقوم حسنها شوسا

لقد دُفنت شهامتكم وقيل لأمكم نعسا

متى يفيق النائمون ؟! :

شهداؤنا بين المقابر يهمسون

والله إننا قادمون

في الأرض ترتفع الأيادي

تنبت الأصوات في صمت السكون

والله إننا راجعون

تتساقط الأحجار يرتفع الغبار

تضيء كالشمس العيون

والله إننا عائدون

شهداؤنا خرجوا من الأكفان

وانتفضوا صفوفًا ثم راحوا يصرخون

عارًا عليكم أيها المستسلمون

وطن يباع وأمة تنساق قطعانًا

وأنتم نائمون
 شهداؤنا فوق المنابر يخطبون
 قاموا إلى لبنان صلوا في مساجدها
 وزاروا المسجد الأقصى
 وطافوا في رحاب القدس واقتحموا السُجون
 في كلِّ شبرٍ من ثرى الوطن المكبَّل ينبتون
 من كل ركن في رُبع الأمة الثكلى
 أراهم يخرجون
 شهداؤنا وسط المجازر يصرخون
 الله أكبرُ منك يا زمن الجنون
 الله أكبرُ منك يا زمن الجنون
 الله أكبرُ منك يا زمن الجنون
 شهداؤنا يتقدمون
 أصواتهم تعلو على أسوار بيروت الحزينة
 في الشوارع في المفارق يهدرون
 إني أراهم في الظلام يُحاربون
 رغم انكسار الضوء في الوطن المكبَّل بالمهانة والدمامة والمجون
 والله إنَّا عائدون
 أكفاننا ستضيء يوماً في رحاب القدس
 سوف تعود تقتحم المعازل والحصون
 شهداؤنا في كلِّ شبرٍ يصرخون
 يا أيُّها المتنطعون
 كيف ارتضيتُم أن ينام الذئب في وسط القطيع وتأمنون
 وطنٌ بعرض الكون يُعرض في المزاد

وطغمة الجرذان في الوطن الجريح يُتاجرون
أحياؤنا الموتى على الشاشات
في صَحْبِ النهاية يَسْكرون
مَنْ أجهض الوطن العريق
وكَبَلِ الأحلام في كُلِّ العيون
يا أيها المتشردمون
سنخلص الموتى من الأحياء
من سَفَهِ العميلِ العابثِ المجنون
والله إِنَّا قادمون

﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون﴾

شهداؤنا في كل شبرٍ في البلاد يُزْمَجرون
جاءوا صفوفاً يسألون
يا أيُّها الأحياءُ ماذا تفعلون ؟
في كُلِّ يوم كالقطيع على المذابح تُصلبون
تسرَّبون على جناح الليل
كالفتران سرّاً للذئاب تهزولون
وأمام أمريكا تُقامُ صلاتُكم فتسبحون
وتطوفُ أعينُكم على الدولار
فوق ربوعه الخضراء يبكي الساجدون
صورٌ على الشاشات
جرذان تصافح بعضها
والناسُ من ألم الفجيعة يضحكون
في صورتين تُباع أوطان وتسقط أمة
ورؤسكم تحت النعال وتركعون

في صورتين تُسَلَّمُ القدس العريقة للذئاب
 ويسكُرُ المتآمرونُ
 شهداؤنا في كلِّ شبرٍ يَصْرُخُونَ
 بيروت تسبِّحُ في الدماء وفوقها الطاغوت يهدرُ في جنونٍ
 بيروت تسألُكم أليس لعرضِها حقٌّ عليكم
 أين فرَّ الرافضونُ
 وأين غاب البائعونُ
 وأين راح الهاربونُ
 الصامتون .. الغافلون ..
 الكاذبون ؟
 صمتوا جميعاً
 والرصاصُ الآن يخترقُ العيونُ
 وإذا سألتَ سمعتهم يتصايحونُ
 هذا الزمانُ زمانهم
 في كلِّ شيءٍ في الورى يتحكمونُ
 لا تسرعوا في موكب البيع الرخيص فإنكم
 في كل شيء خاسرونُ
 لن يترك الطوفانُ شيئاً كلكم في اليمِّ يوماً غارقونُ
 تجرون خلف الموت
 والنخاس يجري خلفكم
 وغداً بأسواق النخاسة تُعرضونُ
 لن يرحم التاريخ يوماً من يفرط أو يخونُ
 كهأننا يترنحونُ
 فوق الكراسي هائمون

في نشوة السلطان والطغيان راحوا يسكرون
 وشعوبنا ارتاحت ونامت
 في غيابات السجون
 نام الجميع وكلهم يتشاءبون
 فمتى يفيق النائمون ..
 متى يفيق النائمون؟! (١)

ولله در من قال :

أرى البلايا تُحيطُ المرءَ تحصنه حتى لئن صحَّ ذوبُ الصخرِ لم يذُبِ
 أو صحَّ أن قناة الصلب قد وهنت فلا يلين إذا ما صُبَّ في اللهبِ
 ما حصصَ الحقُّ إلا بعد ما انسلخت من عمر يوسف أعوامٌ من النَّصبِ
 يقول الدكتور « صالح آدم بيلو » في قصيدته « عرفتُ الطريق » :

كلما ازدادت عليَّ المحنُ
 وتوالتْ إحْنٌ لا تهنُ
 وكُروِبٌ يصطفونها الزمنُ
 وظلامٌ كافرٌ أو فتنُ
 فلتطهير وتدريب عميق
 واختبار الذهب الصَّرفِ الحقيقي
 وإذا عاندت يوماً يا « رفيقي »
 فلأني قد تبينتُ طريقي
 إن ذوتْ في العُصْنِ بعضُ الورقاتِ
 وتهاوتْ للثرى مستبقاتِ
 ورمتها الريحُ في وادي الشتاتِ

(١) « متى يفيق النائمون » قصيدة لفاروق جويده .

فعلى الأغصان زاهي الزهرات
وهنا طلع رضيّ النفحات
فتعلم .. ذاك عنوان الحياة
نحسب الساقط من ماضٍ وآت
إن مضى فليمض ملعون الممات
وإذا ما جرّت يوماً يا صديقي
لنمائي ولإيماني الوثيق
فاعتبر .. إني تبينت طريقي

التاسع والعشرون : سبرُّ فقه الابتلاء والدعوة :

لله سنن ماضية في الدعوات وفي الابتلاء ، ومن سنة الله في الابتلاء امتحان المؤمنين بالشدائد قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] . وقال تعالى : ﴿ لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] . فمن عزائم الأمور الصبر على الأذى والالتزام بالتقوى ، « فهذا مما يجب أن يعزم عليه المؤمنون ، من الأمور التي تُزهِقُ الباطل وتنصرُ الحقَّ وأهله » ^(١) .

وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ومع هذا يحذرُ الإنسان من جلبِ المِحَن أو الحرص عليها . واستعجالُ الحن ناشئٌ من جهل الجماعة المسلمة ؛ قال رسول الله ﷺ : « لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَصْبِرُوا » ^(٢) .

(١) السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان ص ٨٨ ، مؤسسة الرسالة .

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى .

ومن فقه البلاء أن المرء لا ينبغي له أن يذل نفسه ؛ لقول رسول الله ﷺ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » . قالوا : كيف يذل نفسه ؟ قال : « يتعرّض من البلاء لما لا يطيق » ^(١) .

والاستعجال جرّ كثيراً من المستعجلين إلى مصارعهم، مما أدّى إلى تراجع الدعوة في كثير من الأقطار سنين عددا .

وهذا خباب بن الأرت يلاقي ما يلاقي من الأعداء ، وقد كان يُوضع على الحديد المحمي ، فما ينطفئ لهبُه إلا بما يسيلُ من وَدَكِ ظهره ، فيأتي إلى رسول الله ﷺ يسأله : ألا تستنصر لنا ؟ فعَدَّ رسول الله ذلك استعجالاً ؛ لأنه مأمور بعدم الاستعجال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

إن طريق الدعوة شاقٌّ طويل.. وطريق مرير، حتى تحتاج نفسٌ كنفس رسول الله ﷺ في تجرُّدها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وفي صلابتها وفي صفائها ؛ تحتاج إلى هذا التوجيه الربّاني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المعتنّين .

ومن سنن الله نصر أوليائه: ﴿ إنا لننصرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد ﴾ [غافر: ٥١] . وقال تعالى: ﴿ ولقد سبقَتْ كلمتُنا لِعبادنا المرسلين إناهم لهم المنصورون وإنَّ جندنا لهمُ الغالبون ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] .

ولا بد من فهمٍ لمظاهر الانتصار حتى تُشجذ الهمم ؛ فقد يكون النصر بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء ، وقد يكون النصر بإهلاك المكذّبين . وقد يكون النصر بما يتصوره الناس هزيمة ؛ من قتل وسجن وطرد وأذى . وقد يكون النصر بانتصار المنهج وظهوره ، كما قال سيد قطب رحمه

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن حذيفة ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم (٦١٥) .

الله : « إن كلماتنا وأقوالنا تظلُّ جثثًا هامدة حتى إذا متنا في سبيلها وغدّيناها بالدماء عاشت وانتفضت بين الأحياء » ^(١) .

وقد يكون الانتصار بانتصار الداعية على نفسه ، بأن يعرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته ، وينكشف له الباطل وزيفه .

ولله درُّ ابن تيمية حين يُسجن فيقول : « ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أنها رُحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ؛ إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني عن بلدي فنفي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي . إن المحبوس من حبس عن ربّه ، وإن الأسير من أسره هواه » . ولما أغلقوا عليه باب القلعة بدمشق قال : ﴿ فضرِبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ، لو يعلمون ما أسدوا إليّ من الجميل بسجنهم إيّاي في القلعة ما كافأهم عليها بملء القلعة ذهبًا . وتفرَّغ شيخ الإسلام للتفسير وقال : « لو استقبلتُ من عمري ما استدبرْتُ لجعلت حياتي وقفًا عليه » . وأخذوا أقلامه ، فكان يكتب بالفحم على جدران السجن ، ولما أخذوا منه كل شيء تفرَّغ لتلاوة القرآن ، ومات وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ إن المتقين في جناتٍ ونهرٍ في مقعدٍ صدقٍ عندَ ملكٍ مقتدرٍ ﴾ [القمر : ٥٤-٥٥] . ويومَ موته سجن شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه .. إي والله .. من مات سجينًا في سجنهم يسجن ظالميه يوم موته !! فلم يستطيعوا أن يخرجوا يوم موته من بيوتهم ؛ خوفًا من بطش العامة بهم .

ويعلمُ الداعي أن ثباته على مبدئه انتصار باهر ، وأن النصر قد يكون بقوة الحجّة وصحّة البرهان ، وأن الانتصار غير محصور في زمان أو مكان ، فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة ؛ مات ابن تيمية في سجنه ، وانتصرت دعوته أعظم الانتصار بعد عدّة قرون من وفاته .

(١) حقيقة الانتصار للدكتور ناصر سليمان العمر ص ٢١ ، طبع دار الصفوة .

ويعلمُ الداعية أن النصر قد يكون بالمنع ، أي منع أعدائه من الوصول إليه .

إذا فقه الداعي حقيقة الانتصار ؛ جدَّ وسعى في هداية الناس للإيمان ، وعلتْ به همَّته ، وأيقن أن الكاذب لا بد أن يُفتضح ، ومتى علم الداعي قول الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، و ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

مَنْ فقه وعلم الثواب والسنن في الدعوة ، علم أن المستقبل لهذا الدين ، وأن أهل الباطل مهما انتفخوا فهم هباء ..

الداعية بفقهه هذا تعلو همَّته ويكون من صنَّاع الحياة بشموخه وضربه المثل العالي ، « كذاك الذي انقطع به جبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال : كُلُّ جاهليتيكم رديئة .. حتى حبالكم رديئة !! » ^(١) .

وليس وراء صنعة الشموخ حبة خردلٍ من معنى دعوة .

عائذُ أنا من حيث أتيت

عائذُ أنا لمسجدي

عائذُ إلى الصلاة والركوع والسجود

عائذُ إلى الطريق خلف أحمد الرسول

أطلق الخطى حزينة في إثره

عرفتُ قصَّة الطريق كلها

محافل تضمُّ ألف سوط

والموتُ قادم .. يدوس فوق موت

عرفتُ قصَّة الطريق كلها

وعائذُ أنا برغمها

(١) صناعة الحياة لمحمد أحمد الراشد ص ٦٠ ، دار المنطلق بدمشق .

كالفجر .. كالصباح .. مغدق وباسم
 والخطو كالرياح .. عاصف وعارم
 لا بديل للخلود
 لا بديل للجنان
 لا بديل
 لا بديل غير ذلة الرغام
 لا بديل غير خدعة السراب
 لا بديل غير وهدة الظلام
 لا بديل للإقدام .. غير سحقة الأقدام
 عرفت قصة الطريق كلها
 الموت أول المطاف
 لكن خضرة الطريق لا يصيبها الجفاف
 قادم .. وقادم .. وقادم
 إشراقة مضيئة تجيء في الختام
 تقدّموا .. تقدّموا .. تقدّموا
 فبعد لحظة من المسير
 ينتهي الزحام
 ينتهي الزحام

الثلاثون: كَوْنُ الداعية على عقيدة أهل السنة والجماعة، وفهمه لمعنى التوكل:
 متى صحَّ اعتقاد الرجل وسار على درب أهل السنة والجماعة ، علث
 همته وسمت أن يكون مُرجئاً أو صوفيّاً يُنكر الأسباب ويتواكل، وما يجز ذلك
 من عظام .

والرجل من أهل السنة يعلم حقيقة التوكل وربط الأسباب بالمسيبات ،
 ويعلم أنه إذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، وأن من أنكر الأسباب لم يستقم

منه التوكل ، وهذا سلوك البطالين .

ويعلم الداعية أنَّ من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب ، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها ؛ فالأسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكل متعلِّق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ، ولا يستوي ساق التوكل إلا على قدم العبودية . وينبغي للعبد أن لا يُبقي في قلبه اضطراباً من تشويش الأسباب ولا سكوتاً إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويُلبسه السكون إلى مسبب الأسباب .

وعالي الهمة يعلم أن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، لقول رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء » ^(١) . ويعلم أن مشيئة الله شاملة وقدرته نافذة ؛ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] . فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ فلا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئته ، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد ، له الأمر وله الحكم في الدنيا والآخرة ؛ فيفرِّغ العبد قلبه لربه ويعلم أن البشر لا يملكون نفعه ولا ضرره ، فتعلو همته لطلب من بيده النفع والضرر ، يرجو رحمته ويخاف عذابه .

فتعرَّف يا ابن أُمي في العقيدة
يا أخا الإسلام في الأرض المديدة
وتجرَّد لانطلاقاتٍ بعيدة
وتوقَّعها جراحاتٍ جديدة
فهي طوبى واختبارات مجيدة

وتساءل .. غَنَّا اليوم قصيدهُ :
 ما حياة المرء من غير عقيدته ؟!
 ما حياة دون أهداف بعيدة ؟!
 ما حياة دون أرواح شهيدة ؟!
 وكفاح وصراعاتٍ عنيدة ؟!^(١)

الحادي والثلاثون : وصايا الربّانيّين ونصائحهم :

«إن التواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالرحمة: ميثاق إسلامي، أخذهُ الله ورسوله على الجليل القدوة الأول ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ؛ قال عزّ ثناؤه : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر : ١ - ٣] . وقال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة أولئك أصحاب الميمنة ﴾ [البلد : ١٧ - ١٨] .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتّصحيح لكل مسلم »^(٢) .
 والنصيحة كلمة جامعة ، وليس في الكلام كلمة مفردة تُستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ؛ ولذلك جعلها رسول الله ﷺ الدِّينَ كُلَّهُ ، فعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال : « الدينُ النصيحة » . قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ورسوله ، ولأئمة المسلمين وعامّتهم »^(٣) .

(١) من قصيدة « عرفت الطريق » للدكتور صالح آدم بيلو من كتاب « من الشعر الإسلامي الحديث » ص ٩٤ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً ، ومسلم . وروى الشطر الأول منه البخاري في التاريخ عن ثوبان، والبزار عن ابن عمر، والدارمي وابن نصر عن ابن عمر، وأحمد ومسلم وأبو عوانة، وأبو داود، والنسائي، وابن نصر عن تميم ، وأحمد ، والنسائي ، =

فمن خلال لفظ النصيحة المتضمن كلمة التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته؛ تبرز صورة الأمة المتضامنة المتضامنة ، الخيرة الواعية ، القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير .

وهي أنصع وأرفع صورة للأمة المختارة ، التي أرادها الله أن تكون قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالخير والصبر في مودة وتعاون وتأخر ، تتضح بها كلمة التواصي .
إن التواصي بالحق ضرورة للنهوض بالحق ؛ لأن المعوقات كثيرة ؛ هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة .

والتواصي تذكير وتشجيع وإصلاح ، وإشعاراً بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة ؛ فهو حصيلة الاتجاهات الفردية كلها ، حيث تتفاعل معاً فتضعف أضعافاً كثيرة ، ويقوى أمرها ، وتستغلظ فتستوي على سوقها ؛ لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

والتواصي بالصبر ضرورة ؛ لتضعف المقدرة على الثبات على الحق ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المسار وتعاضد الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار . فهو معيار تماسك الأمة المسلمة ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر شعوراً واحداً ، فيوصي بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل ، ويقوى بعضها بعضاً فلا تولي يوم الزحف .

وهذا غير الصبر الفردي وإن كان قائماً عليه ، فهو إيحاء جلي بواجب المؤمن في الأمة المسلمة ، بالألا يكون عنصر تخذيل وتثبيط بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع بل مهبط سكينه وطمأنينة .

= والترمذي ، وابن نصر ، وأبو نعيم عن أبي هريرة ، وأحمد ، والضياء ، والبخاري في التاريخ عن ابن عباس .

وكذلك التواصي بالمرحمة أمر فوق المرحمة ، لأنه إشاعة الشعور بواجب التراحم والتعاطف والتواؤ في الصفوف المؤمنة؛ ليزداد البنيان تماسكاً؛ حيث يكون التحاضُّ على المرحمة واجباً فردياً جماعياً في الوقت نفسه ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع^(١) .

لقد مارس الجيلُ القدوة الأولُ التَّصَحَّحَ على أعلى المستويات وأدناها ، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وطَبَّقَ التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالمرحمة .

وأصدق الوصايا وأنفعها ما ورد في الكتاب العزيز من أوامر الحق ونواهيهِ، المنزَّل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلب نبينا: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿فَإِذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ﴿وَأَحْسِنُوا﴾، ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. ثم وصايا الحبيب ﷺ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ »، « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسَ » .

ووصايا العلماء الربانيين تفعل في القلوب الأعاجيب ، وتشجِّذُ الهممَ : «قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال : أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال : كيف ؟ قال : ازهد في الدنيا»^(٢) .

وقول عثمان رضي الله عنه : «أنتم إلى إمامٍ فعَالٍ أحوجُّ منكم إلى إمامٍ قَوَّالٍ» .

وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس من خوف الذل في الذل».

(١) نقلاً عن الظلال ، الجزء السادس بتصرف ، وكتاب « من وصايا السلف » للشيخ سليم الهلالي .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٠ .

وقول عمرو بن العاص رضي الله عنه :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمم
قضى وطراً منه وغادر سبةً إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
وقول القائل :

وأنت إذا أعطيت بطنك سؤلة وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا
وقول القائل ناصحا : « أنفع اليقين : ما عظم الحق في عينك ، وصغر
ما دونه عندك ، وأثبت الرجاء والخوف في قلبك » .

وقول بندار بن الحسين الشيرازي موصياً وناصحاً : « من مشى في
الظلمة إلى ذي النعم أجلسه على بساط الكرم ، ومن قطع لسانه بشفرة السكوت
بني له بيت في الملكوت ، ومن واصل أهل الجهالة ليس ثوب البطالة ، ومن
هرب من الذنوب هرب به من النار ، ومن رجا شيئاً طلبه » .

وقال رجل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : أوصني يرحمك الله . فقال :
« اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة
أفقر ؛ فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا
فينتظمه ، ثم يزول معك أينما زلت » .

وقال أبو الدرداء : « اعبد الله كأنك تراه ، وعُد نفسك في الموتى » .
وقال : « اذكر الله في السرّاء يذكرك في الضراء ، وإذا ذكرت الموتى
فاجعل نفسك كأحدهم » .

وقال هرم بن حيان : « أوصيكم بخواتيم سورة النحل » . وقال :
« أوصيكم بخواتيم سورة البقرة » .

وقال الشيخ الموفق ابن اللباد : ينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر
الأول ، ومن لم يكدح لم يفلح ، وإذا حدث لك فرح بالدنيا فاذكر الموت
وسرعة الزوال ، واعلم أن للدين عبقة وعرقاً ينادي على صاحبه ، ونوراً وضياءً
يشرق عليه ويدل عليه .

وقال عبد الله بن إدريس لداود الطائي: أوصني. فقال له: أرض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين. قلت: زدني. قال: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت. وقال: ليكن كاتبك محدثيك .

وقال: كفى باليقين زهدًا، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلًا. وقال أيضًا رحمه الله - لرجل قال له: أوصني -: « يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة ، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تُقدِّم في كلِّ يوم مرحلة زادًا لما بين يديك فافعل ؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوّد لسفرك ، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بَعَثَكَ !! إني لأقول هذا وما أعلم أحدًا أشدَّ تضييعًا مني لذلك . ثم قام » .

وقال لرجل آخر : عسكر الموتى ينتظرونك .

وقال الجنيد يوصي إخوانه : عليكم بحفظ الهمة ؛ فإن حفظ الهمة مقدمة الأشياء .

وسأل رجلُ الجنيد: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: توبة تحلُّ الإصرارَ، وخوفٌ يزيل الغرّة ، ورجاءٌ مزعجٌ إلى طريق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلوب .

وقال لرجل : لا تكن عبدَ الله حقًا وأنت لشيءٍ سواه مُسترقًا .

وقال أبو عبد الله السجزي لأخ له : كمال الفتوة أن لا يشغلك الخلق عن الله .

ولله درُّ القائل :

لا تبغينَ جاهًا وجاهُك ساقطٌ عند الإله وكُنْ للموتِ حَذَارًا

وقال ممشاد الدينوري موصيًا : الهمة مقدمة الأشياء ؛ فمن صلحت له همته وصدق فيها ، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال .

وقال آخر موصياً إخوانه : قيمة كلّ إنسان بقدر همته ؛ فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همتُهُ رضاء الله فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها .

وقال ابن الكاتب موصياً : « الهمة مقدّمة في الأشياء ، فمن صحح همته بالصدق أتت توابعها على الصحة والصدق ؛ فإن الفروع تتبع الأصول ، ومن أهمل همته أتت عليه توابعها مهملة ، والمهمل من الأفعال والأحوال لا يصلح لبساط الحق » .

وانظر إلى نصيح سفيان الثوري الذي قال فيه حفص بن غياث : كنا نتعزّي عن الدنيا بمجلس سفيان .

« قال سفيان رحمه الله : لو أن اليقين ثبت في القلب ؛ لطار فرحاً ، أو حزنًا ، أو شوقًا إلى الجنة ، أو خوفًا من النار .

وقال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ؛ فما أتيتُ أحدًا إلّا وقد نهى عن الشهرة »^(١) .

وقال بشر بن الحارث : اكنتم حسناتكم كما تكتم سيئاتكم .

وقال : من أراد أن يلقن الحكمة ؛ فلا يعص الله .

وقال : لا تعمل لتذكر ، وردّ الله ما يريد .

وقال : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلّم ..

وقال : قل لمن طلب الدنيا : تهيأ للذلّ .

وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟

قال : الزهاد . قيل : فمن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه . يعني من أمراء

الظلمة . قيل : فمن السّفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم .

وقال ابن المبارك رحمه الله : لو اتقى الرجل مائة شيء ولم يتق شيئاً

واحدًا ؛ لم يكُ من المتقين ، ولو تورّع عن مائة شيء سوى شيء واحد ؛
لم يكن ورعًا ، ومَن كانت فيه خُلَّةٌ من الجهل كان من الجاهلين ، أمّا سمعتَ
الله يقول لنوح عليه السلام من أجل ابنه : ﴿إني أعظُّك أن تكون من الجاهلين﴾
[هود : ٤٦] ؟!

وكتب سفيان الثوري إلى عبّاد بن عبّاد الخوّاص : « عليك بالأمر الأول
والتمسكُ به ، وعليك بالخمول ؛ فإن هذا زمن الخمول . وإياك وحبّ الرئاسة ؛
فإن الرجل تكون الرئاسة أحبَّ إليه من الذهب والفضة . وهو باب غامض ،
لا يبصره إلا العلماء السماسرة ، فتفقّد نفسك ، واعملُ بنيةً ، واعلمُ أنه قد
دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت . والسلام »^(١) .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز : « إن الذي بقي من
العمر لا ثمن له ولا عدل ، فلو جمعت الدنيا كلها ما عدلت يوماً بقي من عمر
صاحبه ، فلا تبع اليوم وتعده من الدنيا بغير ثمنه ، ولا يكوننَّ المقبور أعظمَ
تعظيمًا لما في يدك منك وهو لك ، فلعمري لو أن مدفونًا في قبره قيل له : هذه
الدنيا - أولها إلى آخرها - تجعلها لولدك من بعدك يتنعمون فيها من ورائك ؛
فقد كنتَ وليس لك همٌّ غيرهم - أحبَّ إليك ، أم يوم تُترك فيه تعمل لنفسك ؟
لاختار ذلك ، وما كان ليجمع مع اليوم شيئًا إلا اختار « اليوم » عليه ؛ رغبة
فيه وتعظيمًا له ، بل لو اقتصر على ساعة خيّرَها وما بين أضعاف ما وصفتُ
لك وأضعافه يكون لسواه ؛ إلا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون
لغيره . بل لو اقتصر على كلمة يقولها تُكتب له وبين ما وصفتُ لك وأضعافه ؛
لاختار الكلمة الواحدة عليه .

فانتقد اليوم لنفسك ، وأبصر الساعة ، وأعظم الكلمة ، واحذر الحسرة
عند نزول السكر ، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حُجّة ، نفعا الله وإياك

(١) من وصايا السلف ، لسليم الهلالي ص ٢٠ - ٢٥ ، دار ابن الجوزي .

بالموعظة، ورزقنا وإياك خير العواقب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». وقال الفضيل بن عياض : لا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيّعوا وصيتك ، وأنت قد ضيّعتها في حياتك ؟

وقال الفضيل : إنما أمس مثل ، واليوم عمل ، وغدا أمل . وقال رحمه الله : رهبةُ العبد من الله على قدر علمه بالله ، وزهاده في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة .

«وقال علي بن المديني : ودّعتُ أحمد بن حنبل فقلت له : توصيني بشيء ؟ قال : نعم ؛ اجعل التقوى زادك ، وانصب الآخرة أمانك . وقال رحمه الله : كلُّ شيء من الخير تهتمُّ به ، فبادِرْ به قبل أن يُحال بينك وبينه .

وقال عبد الله بن أحمد : قلتُ لأبي يوماً : أوصني يا أبة . فقال : يا بني ، انوِ الخير ، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير . وكتب الإمام أحمد إلى سعيد بن يعقوب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أحمد بن محمد إلى سعيد بن يعقوب ، أما بعد : فإن الدنيا داء ، والسلطان داء ، والعالم طبيب ، فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه ، فاحذره ، والسلام عليك »^(١) .

كلمات التثبيت وشخذ الهمم ، قالها الربانيون لأحمد بن حنبل في المحنة :

إن كان الإمام أحمد قوَّى الله عزمه بنصيحة الصادقين في محنته فما بال غيره؟! عن أبي جعفر الأنباري قال: « لَمَّا حُمِلَ أحمد إلى المأمون أُخبرْتُ ، فعبرتُ الفرات ، فإذا هو جالس في الخان فسلمتُ عليه ، فقال : يا أبا جعفر ، تعنيتُ . فقلت : يا هذا ، أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك ، فوالله لئن أُجبتَ إلى خلق القرآن ليجبينَّ خلقٌ ، وإن لم تُجبْ ليمتنعنَّ خلقٌ من الناس كثير ،

ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك ؛ فإنك تموت ، لا بد من الموت ، فاتق الله ولا تُجِبْ . فجعل أحمد يكي ويقول : ما شاء الله . ثم قال : يا أبا جعفر ، أعِدْ . فأعدت عليه وهو يقول : ما شاء الله « اهـ ^(١) .

قال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: « صرنا إلى « الرّحبة » ، ورحلنا منها في جوف الليل ، فعرض لنا رجل فقال : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقليل له : هذا . فقال للجّمّال : على رسلك .. ثم قال : « يا هذا ، ما عليك أن تُقتل هاهنا ، وتدخل الجنة ؟ » . ثم قال : أستودعك الله . ومضى . فسألت عنه ، فقليل لي : هذا رجل من العرب من ربيعة ، يعمل الصوف في البادية ، يُقال له : جابر بن عامر ، يُذكر بخير ^(٢) .

وفي « البداية والنهاية » : « أن الأعرابي قال للإمام أحمد : يا هذا ، إنك وافد الناس فلا تكن شومًا عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فأياك أن تجيهم إلى ما يدعونك إليه ، فيجيئوا فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة ، وإن كنت تحبّ الله ، فاصبر على ما أنت فيه ؛ فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل . قال الإمام أحمد : وكان كلامه ممّا قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه ^(٣) .

وفي رواية أن الإمام أحمد قال : « ما سمعتُ كلمة منذ وقعتُ في هذا الأمر أقوّى من كلمة أعرابيٍّ كلّمني بها في « رجة طوق » ^(٤) ؛ قال : يا أحمد ، إن يقتلك الحقّ ممّت شهيدًا ، وإن عشتَ عشتَ حميدًا .. فقوّى قلبي ^(٥) .

(١) السير ١١ / ٢٣٨ .

(٢) السير ١١ / ٢٤١ .

(٣) البداية والنهاية (١/٣٣٢)، ووسائل الثبات على دين الله لحمد صالح المنجد ص ٣٢-٣٣ ، دار الوطن .

(٤) اسم بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات .

(٥) السير ١١ / ٢٤١ .

وقال الإمام أحمد عن مرافقة الشاب محمد بن نوح الذي صمد معه في الفتنة: ما رأيت أحداً - على حداثة سنّه، وقدر علمه - أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ؛ إنني لأرجو أن يكون قد نُحِتِم له بخير ؛ قال لي ذات يوم : « يا أبا عبد الله ، الله ، الله . إنك لست مثلي ؛ أنت رجل يُقتدَى بك ، قد مدّ الخلقُ أعناقهم إليك ؛ لِمَا يكون منك . فاتق الله ، واثبت لأمر الله . فمات وصليت عليه ودفنته »^(١) .

وحتى أهل السجن الذين كان يُصلي بهم الإمام أحمد وهو مقيد ؛ قد ساهموا في تثبيته . فقد قال الإمام أحمد مرّة في الحبس : « لستُ أبالي بالحبس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوّط . فسمعه بعض أهل الحبس فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي .. فكأنه سرّي عنه »^(٢) . وهذا ذو النون المصري يقول: لا يتفكّر القلب لغير الله إلا إذا كان عليه عقوبة .

«وقال يوسف بن الحسين: قلتُ لذي النون - لِمَا أردتُ توديعه-: أوصني رضي الله عنك ، بوصية أحفظها عنك . فقال : لا تكنُ خصماً لنفسك على ربك، مستزیده في رزقك وجاهك ، ولكن خصماً لربك على نفسك »^(٣) . وكانت أم سفيان الثوري تقول: « يا بُنَيَّ لا تتعلّم العلم إلا إن نويت العمل به ، وإلّا فهو وبّالٌ عليك يوم القيامة » .

ولله درّ ذات النطاقين وهي توصي ابنها عبد الله بن الزبير ، فتقول له : «الله الله يا بُنَيَّ، إن كنتَ تعلم أنك على حقّ تدعو إليه فامض عليه، ولا تُمكنْ

(١) السير ١١ / ٢٤٢ .

(٢) السير ١١ / ٢٤٠ .

(٣) الحلية ٩ / ٣٨٢ .

من رقتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلك نفسك ومن معك ، وإن قلت : « إني كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت نيّتي » ؛ فليس هذا فعل الأحرار ولا من فيه خير ، كم خلودك في الدنيا ؟! القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير ، والله لَضَرْبَةُ بالسيف في عِزِّ أَحَبِّ إِلَيَّ من ضَرْبٍ بالسَّوْطِ في ذُلِّ . فقال : يا أمّاه ، أخاف إن قتلتني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني . قالت : « يا بُنَيَّ ، إِنَّ الشَّاةَ لَا يَضُرُّهَا السِّلْحُ بعد الذَّبْحِ ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله » .

وهذه رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري ؛ تقول له : لست أنا وأنت ممن ينغص عليه العيش بذكر الآخرة .

وعَمْرَة زوجة أبي محمد حبيب العجمي تحثه على القيام ، فتقول له : قُمْ يا سيدي ؛ فهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، وبين يدينا طريق طويل وزاد قليل ، وهذه قوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا ونحن قد بقينا . وهذه الزوجة الصالحة « مَوْضِي بنت أبي وهطان » زوجة الأمير محمد ابن سعود رحمه الله ، والتي كان لنصيحتها أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة ، منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا ، فإنها هي التي حثّت زوجها على مناصرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب رحمه الله ، وشدّ أزره ، وإشهار سيفه من غمده؛ نصرةً لدعوة التوحيد ^(١) .

ومن وصايا الجُنيد رحمه الله : « متى أردت أن تشرف بالعلم وتُنسب إليه وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلم ما له عليك ؛ احتجب عنك نوره ، وبقي عليه وسّمه وظهوره ، ذلك العلم عليك لا لك » ^(٢) .

ومن وصايا السري رحمه الله : « خمس مَنْ كُنَّ فيه فهو شجاع بطل :

(١) علو الهمة ص ٣٥٨ .

(٢) الحلية ١٠ / ٢٦٩ .

استقامة على أمر الله ليس فيها رَوَّان، واجتهاد ليس معه سهو، وتيقظ ليس معه غفلة، ومراقبة الله في السر والجهر ليس معه رياء، ومراقبة الموت بالتأهب^(١). وكتب الأوزاعي إلى أخ له : « أما بعد ؛ فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يُسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والمقام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام » .

ودخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له : عِظْني يا سابق وأوجز . قال : نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله . قال عمر : هات . فأنشده سابق :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من الثقي
ووافيت بعد الموت من قد تزودا
نِدِمْتَ على أن لا تكون شركته
وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا
فبكي عمر حتى سقط مغشياً عليه^(٢) .

وأوصى أبو سليمان الداراني ابن أبي الخواري فقال : « خالف نفسك في كل مرادتها فإنها الأمارة بالسوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دثاراً ، والخوف منه شعاراً ، والإخلاص له زاداً ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ، ولا تفارقها ، ولا تغفل عنها : من استحيا من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله، بلغه الله إلى مقام الأولياء من عباده^(٣) .

ونختم بقول القائل ونصحه الذي يُعلي الهمم : « لا تقنع بالشرف التالد ؛ فذاك الشرف للوالد ، واضمم إلى التالد طريفاً ، حتى تكون بهما شريفاً ، ولا تدل لشرف أبيك ، ما لم تدل عليه بشرف فيك » .

(١) الحلية ١٠ / ١١٧ .

(٢) الحلية ٥ / ٣١٨ .

(٣) البداية والنهاية ، نقلاً عن أقوال مأثورة وكلمات جميلة ، للدكتور محمد لطفي الصبَّاع ، ص ٨٢ - المكتب الإسلامي .

الثاني والثلاثون : ذكُرُ الجنة والنار دَوَامًا وجعلهما نُصَبَ العين :

وهذا السبب من أهم الأسباب لعلو الهمة .. فالحياة الباقية هي الحيوان ، وهي الرنج والحُسْر .. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدّر له ، أو يرتكس فتهدّر آدميته ، وينتهي إلى أن يكون حَجَرًا في القيمة ، ودون الحجر في الراحة ، ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّم يدها ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا ﴾ [النبا : ٤٠] .

والجنة بلاد الأفراح ، وسلوة الأحزان ، ومحطُّ رحال المؤمنين ، والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوّ عليها الصّعاب ويذلّ لها ما في الطريق من عقبات ومشاق .

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل ، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السماوات والأرض ، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي .

وكان النبي ﷺ يستخدم ذكُر الجنة في تثبيت أصحابه ، ففي الحديث الحسن الصحيح: مرّ رسول الله ﷺ بياسر وعمّار وأمّ عمّار وهم يؤذّون في الله تعالى ، فقال لهم : « صبرًا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة » ^{(١)(٢)} .

وذكُر الجنة والنار وجعلهما نُصَبَ العين يدفع إلى علو الهمة :

أما تنظر قول رسول الله ﷺ : « ما رأيتُ مثل النار نام هارِبُها ، ولا مثل الجنة نام طالِبُها !! » ^(٣) .

(١) وسائل الثبات على دين الله ، للمنجد ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) حسن صحيح : رواه الحاكم ٣ / ٣٨٣ ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخريجه في فقه السيرة ، تحقيق : المحدث الألباني ص ١٠٣ .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط عن أنس ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٣ .

وقد مرّ بك علو الهمة في الشوق إلى الجنة ، وكيف أن ذكر الجنة جعل الرجال يأتون بالأعاجيب : أنس بن النضر ، وجعفر الطيّار ، وحرام بن ملحان ، وعُمير بن الحمام ، وعبد الله بن رواحة .. وإذا تذكّر الإنسان تفاوت الدرجات في الجنّة وعظمه وأيقن بهذا؛ تعلو همته لنيل أعلى الدرجات والقرب من رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة كما تراءون الكواكب في السماء »^(١) .

وقال ﷺ : « إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم »^(٢) .

وقال ﷺ : « إنّ أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء ، وإنّ أبا بكر وعمر منهم وأنعماء »^(٣) ، فحول الجنة يدندن من سمّت به همته .

وذكر النار والخوف منها شحذ الهمم ونصّب الأبدان وأذبل الأرواح ؛ خوفاً منها :

ومرّ بنا خوف الربيع بن خثيم ، وطاووس ، وقبلهما شداد بن أوس ، وبعدهما محمد بن المنكدر ، وعلي بن الفضيل وسفيان وعبد الله بن المبارك ، والفضيل، ومنصور بن المعتمر، وكيف أن خوف النار حال بينهم وبين الراحة، فسهروا الدياجي وتهجدوا لله في ظلماتها خوفاً من نارها .

(١) رواه أحمد والشيخان عن سهل بن سعد .

(٢) رواه أحمد والشيخان عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٣٠ .

فرحم الله أقوامًا صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالملاء الأعلى ، إذا مروا بآية فيها ذكر الجنة فكأنهم فيها منعمين ، وإذا مروا بآية فيها ذكر النار فكأن زفير النار وشهيقها في آصال آذانهم .

الثالث والثلاثون وهو الأخير والأجل والأعظم والخطير الذي ليس له نظير :
جعلهم همًّا واحدًا وجعله في الله تعالى :

مَنْ جَعَلَ الْهَمَّ هَمًّا وَاحِدًا وَجَعَلَهُ فِي اللَّهِ ، «لا يزال الله يرقّيه طبقًا بعد طبق ومنزلًا بعد منزل ، إلى أن يوصله إليه ، ويُمكن له بين يديه .. والسعيد كل السعيد ، والموفق كل الموفق : مَنْ لم يلتفت عن ربّه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالًا ، ولا اتّخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا ، ولا حبيبًا ولا مدبرًا ، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا .

فإن استمرّ على حاله واقفًا بباب مولاه لا يلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا يجيب غير مَنْ يدعوه إليه - رُجّي له أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحقّ ، فيبقى قلبه سابحًا في بحرٍ من أنوار آثار الجلال ، فتنبع الأنوار من باطنه ، حتى يجد الملكوت الأعلى كائنه في باطنه وقلبه ، ويجد قلبه عاليًا على ذلك كله ، صاعدًا إلى مَنْ ليس فوقه شيء ، ثم يرقّيه الله سبحانه ، فيُشهِدُه أنوار الإكرام بعدما شهد أنوار الجلال ، فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال ، وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة الملهية للأرواح والقلوب ، فيبقى القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليّه ، ممتحنًا بحبّه .

فيا له من قلب ممتحن مغمور ، مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحدي ، والناس مفتونون ممتحنون ، بما يفنى من المال والصُّور والرياسة ، معذبون بذلك قبل حصوله ، وحال حصوله ، وبعد حصوله ، وأعلام مرتبة مَنْ يكون مفتونًا بالحُور العين ، أو عاملاً على تمتّعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح ، وهذا الحبُّ قد ترقّى في درجات المحبة على أهل المقامات ، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الثّري الغابر في الأفق ؛ لعلّو

درجته وقرب منزلته من حبيبه ومعيته معه ، فإن المرء مع من أحب ، ولكل عمل جزاء ، وجزاء المحبة : المحبة والوصول والاصطناع والقرب ، فهذا هو الذي يصلح ، وكفى بذلك شرفاً وفخراً في عاجل الدنيا ، فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر ^(١) .

ولله در ابن القيم حيث يقول : « إن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه ، وهيمته متعلقة بغيره ، وإنما يُودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله ، والغنى فقراً دون الله ، والعز ذلاًّ دونه ، والذل عزاً معه ، والنعيم عذاباً دونه ، والعذاب نعيماً معه ، فلا يرى الحياة إلا به ومعه ، والموت والألم ، والهمم والغم والحزن ، إذا لم يكن معه ؛ فهذا له جنتان : جنة في الدنيا معجلة ، وجنة يوم القيامة .

ولله ما أحلاه ! عكوف القلب على الله عز وجل وحده كعكوف البدن في المسجد لا يفارقه !! وإن كانت الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، فكيف تدخل محبة الله عز وجل قلباً ملى بالصُّور والأغيار ؟!

أردناكم صِرْفاً فلماً مُرَجْتُمُ بَعْدْتُمْ بِمَقْدَارِ التَّفَاتِكُمْ عَنَّا
وَقُلْنَا لَكُمْ : لَا تُسْكِنُوا الْقُلُوبَ غَيْرَنَا فَأُسْكِنْتُمُ الْأَغْيَارَ مَا أَنْتُمْ مِنَّا
وَمَنْ لَمْ يَعْكُفْ قَلْبُهُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ عَكَفَ عَلَى التَّمَاثِيلِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الْحَنْفَاءِ لِقَوْمِهِ : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] ؛ فاقْتَسَمَ هُوَ وَقَوْمُهُ حَقِيقَةَ الْعُكُوفِ ، فَكَانَ حَظُّ قَوْمِهِ الْعُكُوفَ عَلَى التَّمَاثِيلِ ، وَكَانَ حَظُّهُ الْعُكُوفَ عَلَى الرَّبِّ الْجَلِيلِ ^(٢) .

« فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس ، وشهوة عاجلة ، ذهبت لذتها ، وبقيت تبعتها ، وانقضت منفعتها ، وبقيت مضرتها ،

(١) مدارج السالكين ٣ / ٣٨١ ، ٣٨٢ بتصرف .

(٢) الفوائد ص ٢٥٥ - ٢٥٦ بتصرف .

فذهبت الشهوة ، وبقيت الشقوة ، وزالت النشوة ، وبقيت الحسرة !!
فواحسرتاه لصبّ جُمع له بين الحسرتين: حسرة فوت المحبوب الأعلى
والنعيم المقيم ، وحسرة ما يقاسيه من النصب في العذاب الأليم !! فهناك يعلم
المخدوع أي بضاعة أضاع ، وأن من كان مَالِك رِقّه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون
له من جملة الخدم والأتباع .

فأي مصيبة أعظم من مصيبة مَلِك أنزل عن سرير ملكه ، وجعل لِمَن لا يصلح
أن يكون مملوكه أسيرًا ، وجعل تحت أوامره ونواحيه مقهورًا ؟! فلو رأيت قلبه
وهو في يد محبوبه ، لرأيت :
كعصفورة في كفّ طفل يسومها حياض الرّدى والطفل يلهو ويلعب

ولو شاهدت حاله وعيشه ؛ لقلت :

وما في الأرض أشقى من مُحب وإن وجد الهوى حلّو المذاق
تراه باكيًا في كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيكي إن نأوا شوقًا إليهم ويكي إن دَنّوا حذر الفراق

فهل يليق بالعقل أن يبيع هذا المَلِك المطاع لمن يسومه سوء العذاب ، ويوقع
بينه وبين وليّه ومولاه الحق الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه - أعظم الحجاب ؟!
فالمحب بمن أحبه قتيل ، وهو له عبد خاضع ذليل ؛ إن دعاه لبّاه ، وإن قيل له : ما
تتمنى ؟ فهو غاية ما يتمناه ، لا يأنس ولا يسكن إلى سواه ، فحقيق به أن لا يملك
رقّه إلّا لأجل حبيب ، وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب . اه^(١) .

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه ، وعلى
همة تُؤثر الأدنى على الأعلى ، وما ذاك إلّا بتوفيق من أزيمة الأمور بيديه ، ومنه
ابتداء كل شيء وانتهاءه إليه ؛ أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر
إلى ربهم وهذه الدار وأطيب الجوار ، وجذب قلوب من سبقت لهم منه
الحسنى ، فأقامهم في الطريق ، وجعل همهم واحدًا وجعله فيه ، وسهل عليهم

ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين، وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين، وعقدت العبرة وثار العجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون، وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون ويخسر المبطلون. أخى، الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

١ - تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة .

٢ - وملاحظة لمنه تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة .

٣ - وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية .

فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة؛ جالت في أودية الوسوس والخطرات، فاجعل القلب منك جوالاً وسابحاً في بحور الأسماء والصفات .

فيا صاحبي قف بي مع الحق وقفةً أموت بها وجداً وأحيا بها وجداً
وقل للملوك الأرض تهجد جهدها فذا الملك ملوك لا يُباع ولا يُهدى
يا هذا، عندك بضائع نفيسة .. دموع ودماء، أنفاس وحركات،
وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قدر له .

أصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفس أسفاً على ما يفنى؟ أو
تبذل مهجةً لصورةٍ عما قليل تمحى؟

لا وألف لا ... بل وجيب القلب وخفقانه لمن له نُعوت الجمال والجلال
والكمال .

قوم تخلصهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تأهوا به عمن سواه له يا حسن رؤيتهم في حسن ما تأهوا



* الخاتمة *

« بَعْتُكُمْ أَغْلَى الْمَلِكِ ، فَلَا تَنْسُونِي غَدًا لِكِرَامَةِ الدَّلَالِ »

□ الخاتمة □

أخي ، لتكن لك همة تنطح الثريا .
 « إذا أعطي العبد همة كبرى ؛ ارتحلت به في دروب الفضائل ، وصعدت به في درجات المعالي .

ومن سجايا الإسلام التحلي بكبر الهمة وجلالة المقصود ، وسمو الهدف وعظمة الغاية . فالهمة هي مركز السالب والموجب في شخصك ، الرقيب على جوارحك ، وهي الوقود الحسي والطاقة الملتهبة ، التي تمد صاحبها بالوثوب إلى المعالي ، والمسابقة إلى المحامد . وكبر الهمة يجلب لك - بإذن الله - خيراً غير مجذوذ ؛ لترقى إلى درجات الكمال ، فيجري في عروقك دم الشهامة ، والركض في ميدان العلم والعمل ، فلا يراك الناس واقفاً إلا على أبواب الفضائل ، ولا باسطاً يديك إلا لمهمات الأمور ، تنافس الرواد في الفضائل ، وتزاحم السادة في المزايا ، لا ترضى بالدون ، ولا تقف في الأخير ، ولا تقبل بالأقل .
 والتحلي بالهمة ؛ بها يُسلب منك سفاسف الآمال والأعمال ، ويُجتث منك شجرة الذل والهوان ، والتملق والمداهنة .

فكبير الهمة ثابت الجأش لا ترهبه المواقف ، وفاقدها جبان رعديد ، تُغلق فمه الفهاة .

ولا تغلظ فتخلط بين كبر الهمة والكبر ؛ فإن بينهما من الفرق كما بين السماء ذات الرجوع والأرض ذات الصّدع ، فكبر الهمة تاج على مفرق القلب الحر المثالي ، يسعى به دائماً وأبداً إلى الطهر والقداسة والزيادة والفضل ، فكبير الهمة يتلمّظ على ما فاتته من محاسن ، ويتحسّر على ما فقدته من مآثر ، فهو في حنين مستمر ، ونهم دؤوب ، للوصول إلى الغاية والنهاية .

كبر الهمة حلية ورثة الأنبياء ، والكبر داء المرضي بعلّة الجبابة البؤساء .

فكبر الهمة تصعد بصاحبها أبداً إلى الرقي ، والكبر يهبط به دائماً إلى الحضيض .

فيا طالب العلم ، ارسم لنفسك كبر الهمة، ولا تنفلت منها، وقد أوماً الشرع إليها في فقهيات تلايس حياتك ؛ لتكون دائماً على يقظة من اغتنامها ، ومنها : إباحة التيمم للمكلف عند فقد الماء، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المنة التي تنال من الهمة منالاً .. وعلى هذا فقس .

همم كأن الشمس تخطب ودها والبدر يرسم في سناها أحرفاً
فالله الله في الاهتمام بالهمة ، وسل سيفها في غمرات الحياة .
هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيّداً ^(١)
يا ابن الإسلام .. ويا عالي الهمة :

فأطلق لروحك إشراقها ترى الفجر يرمقنا من بعيد
وقل لكل حاقِد - صليبي أو يهودي أو علماني - : احسأ ؛ فلن تعدو قدرك .
لا تهبي كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر موثيق وعهد
واهدير بصوتك مجلجلاً يصم آذانهم :

أناضل عن دين عظيم وهبته عطاء مقل مهجتي وحياتيا
وممثل لله أسلم وجهه يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي بجنبي بعظم الصدر حتى التراقيا
تأخرت دهرًا باللذائذ والمنى ومن حذر الدنيا وخوف العوادي
فلن أَر يوماً كالتقدم لذة ولم أَر عيشاً كالتقدم هانيا
على ذروة التوحيد تحفّق رايتي وتحت روايتها تصب دمايا
وعلى الذرا .. ومنارات الدنيا؛ ردّد للكون نداءك : « ليلغن هذا الأمر
ما بلغ الليل والنهار » .

(١) لا تحزن ، لعائض القرني ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

إسلامي ولو حتّى	إلى الجدران شدوني
إسلامي ولو حتّى	إلى النيران زفوني
إسلامي إسلامي	ولو في السوق باعوني
وإسلامي له نبضي	له عرقي وتكويني
وثارات لإسلامي	تُعائشني تغذيّني
تبثّ النور في رُوحِي	وتنبّض في شراييني

أخي :

قد أطلتُ عليك .. وأسهبْتُ في بعض المواطن واستطردْتُ ، ولعلَّ لي عذري .. وتركتُ فصولاً أخرى لطبعات تالية ..

أخي القارئ :

هذا جمعي ، لك غنمُه وعليّ غُرْمُه ، لك ثمرته وعليّ تبعته ؛ فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍّ فاقبله ولا تلتفتْ إلى قائله، وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهدَ الإصابة ، ويعلم الله أنه أخذ من لحمي ودمي ، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال ، كما قيل :

والنقصُ في أصل الطبيعة كامنٌ فبنو الطبيعة نقصهم لا يُجحدُ

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلِق ظلوماً جهولاً !!؟

ومن الفأل الحسن لهذا الكتاب - وأسأل الله بكرمه أن يضع له القبول في الأرض - أن أكتب مقدّمته في الروضة النبويّة بالمسجد النبوي ، وأن أختمه والله الحمد وأضع القلم فراغاً منه لأذهب لأفضل الصلوات ؛ قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة »^(١) .

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٦٦ .

وأختم كتابي بهذا الدعاء علّه يناسب « علو الهمة » .

* اللَّهُمَّ يَا وَارِثَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَيَا بَاعِثَ جَمِيعٍ مَنْ فِيهَا ، وَرِثْ أَمَلِي فِيكَ مُنَى أَمَلِي ، وَبَلِّغْ هَمِّي فِيكَ مُتْنَى وَسَائِلِي .

* اللَّهُمَّ مَتَّعْ أَبْصَارَنَا بِالْجَوْلَانِ فِي جَلَالِكَ ، وَسَهِّرْنَا عَمَّا نَامَتْ عَنْهُ عُيُونُ الْغَافِلِينَ .

* اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ لَخْدَمَتِكَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ لَهُمْ طُلَابًا ، وَلِخِصَائِصِ أَصْفِيائِكَ أَصْحَابًا ، وَلِلْمَعْتَكِفِينَ بِيَابِكَ أَحِبَابًا .

* اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ بَذَلُوا الْمَجْهُودَ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِكَ ، وَانصَرَفَتْ عَنْ خَلْقِكَ إِلَيْكَ هَوْمُهُمْ ، وَأُنِسَتْ وَطَابَتْ بِالْخُلُوعَةِ فِيكَ نَفْسُهُمْ ، وَلَا يَسْعَوْنَ فِي طَاعَتِكَ إِلَّا رَكْضًا .

* اللَّهُمَّ سُقْنَا إِلَى أَقْصَى مَرَادِكَ دَرَجَةً دَرَجَةً ، وَاسْلُكْ بِنَا مَنَايِلَ أَصْفِيائِكَ مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً ، وَاكْشِفْ لَنَا عَنْ مَكْنُونِ عِلْمِكَ حِجَابًا حِجَابًا حَتَّى نَتَنَزَّهَ فِي بَسَاتِينِ نَشْرِ الْأَثَرِ ، وَنَرْتَوِيَ مِنْ غَدْرَانِ ذِكْرِ نِعْمَائِكَ .. ارْدُدْ أَبْصَارَنَا وَبَصَائِرَنَا بِطُرْفِ الْفَوَائِدِ ، وَامْدُدْهَا بِتُخَفِ الزَّوَائِدِ ، وَاجْعَلِ الْعُيُونَ مَنَا فَوَارَةً بِالْعِبَرَاتِ ، وَالصَّدُورَ مَنَا مَحْشُوءَةً بِالْحَرَقَاتِ .

* اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْكَ مَا هُوَ لَكَ ، وَأَسْتَعِيزُكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُسْخِطُكَ .

* اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ صِفَاءِ الصَّفَاءِ صِفَاءَ أَنْالَ بِهِ مِنْكَ شَرَفَ الْعِطَاءِ .

* اللَّهُمَّ وَلَا تَشْغَلْنِي شُغْلَ مَنْ شَغَلَهُ عَنْكَ مَا أَرَادَ مِنْكَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ .

* اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ يَذْكُرُكَ ذِكْرَ مَنْ لَا يَرِيدُ بِذِكْرِهِ مِنْكَ إِلَّا مَا هُوَ لَكَ .

* اللَّهُمَّ اجْعَلْ غَايَةَ قَصْدِي إِلَيْكَ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ .

* اللَّهُمَّ امْلَأْ قَلْبِي بِكَ فَرَحًا ، وَلِسَانِي لَكَ ذِكْرًا ، وَجَوَارِحِي فِيمَا يُرْضِيكَ شُغْلًا .

* **اللَّهُمَّ** امحُ عن قلبي كلَّ ذكرٍ إلا ذكركَ ، وكلَّ حُبٍّ إلا حُبَّكَ ، وكلَّ
وُدٍّ إلا وُدَّكَ ، وكلَّ إجلالٍ إلا إجلالَكَ ، وكلَّ تعظيمٍ إلا تعظيمَكَ .
* **اللَّهُمَّ** اجعلْ سُؤالي لك سؤالَ محابِّكَ ، ولا تجعلني ممَّن يتعمَّد بسؤاله
مواضيعَ الحظوظ ، بل يسألُ القيامَ بواجبِ حقِّكَ .

* **اللَّهُمَّ** اعصمنا فيما بقي من الأعمار إلى منتهى الآجال ، عصمةً دائمةً
كاملةً تامَّةً ، وكرَّةً إلينا كلِّ الذي تكرَّه ، وحُبِّ إلينا كلِّ الذي ترضاه
وتحبُّه ، واستعملنا به على النحو الذي تحبُّ ، وأدِّمْ ذلك لنا إلى أن
تتوفَّانا عليه ، أكِّدْ على ذلك عزائمنا ، واشدِّدْ على ذلك نيَّاتنا ، وأصلحْ
لها سرائرنا ، وابعثْ لها جوارِحنا ، وكنْ وَلِيَّ توفيقنا وزيادتنا
وكفائتنا .

* **اللَّهُمَّ** هبْ لنا ما وهبتَ لصفوتك وأوليائك وأهل طاعتك من دائمِ
الذكر لك ، وخالصِ العملِ لوجهك ، على أكمله وأدومه ، وأصفاهُ
وأحبهُ إليك ، وأَعِنَّا على الفعلِ بذلك إلى منتهى الآجال .
* « **اللَّهُمَّ** اجعلْ في قلبي نورًا ، وفي لساني نورًا ، وفي بصري نورًا ،
وفي سمعي نورًا ، وعن يميني نورًا ، وعن يساري نورًا ، ومن فوقِي
نورًا ، ومن تحتي نورًا ، ومن أمامي نورًا ، ومن خلفي نورًا ، واجعلْ
لي في نفسي نورًا ، وأعْظِمْ لي نورًا » ^(١) .

وأخيرًا وليس آخرًا إلى إخواني القراء :

أناشِدُ اللهَ مَنْ قرأ هذا الكتابَ وانتفعَ به ، أن يسألَ اللهَ سبحانه أن
يجعلني من العلماءِ الربانيينِ ، وأن يرزقني شهادةً في سبيله ، وموتًا في بلدِ رسوله ﷺ .
كما أناشِدكم اللهَ أن تدعوا لابنتي [سمية وفاطمة] بالصلاح والفلاح

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس .

والطهر والعفاف، وأن يجعلهما الله من القانتات التائبات العابدات، الحافظات للغيب بما حفظ الله .

* * *

وكتبه حامداً ومصلّياً

الفقير إلى رحمة ربه

السيد بن حسين العفّاني^(١)

جمهورية مصر العربية - محافظة بني سويف - مركز بني سويف ، قرية بني عفّان

صندوق بريد رقم [١٢٣]

الدكتور : السيد بن حسين بن عبد الله

ت : ٤٩٢٥٢٢ / ٠٨٢

٤٩٢٥١٢ / ٠٨٢

(١) لمن أراد أن يرأسني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله امرأً أهدي إلي عيوني .